وسام البطولة

تأليف

جابر عبد السلام هلال



عبد السلام، جابر .
وسام البطولة/ جابر عبد السلام
ط1- القاهرة: دار العلوم للنشر والتوزيع، 2006.
112 ص، 21 سم .
تدمك 9 - 084 - 380 - 977
1 - القصص العربية - مصر
أ - العنوان
رقم الإيداع 2006/13347
813.02

الطبعة الأولى: 1428هـ/2007م

الناشر



دار العلوم للنشر والتوزيع - القاهرة

هاتف : 5761400(202) **فاكس:** 5799907(202)

البريد الإلكتروني:
daralaloom@hotmail.com daralaloom2002@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾
(سورة آل عمران: ١٦٩)

إهداء

إلى كل الجنود الشرفاء والنبلاء والشهداء في جبهة القتال الذين استشهدوا في حرب الاستنزاف أعوام ٦٨، ٦٩، ٧٠ من أجل أطفال مصر ومن أجل تراب مصر ومن أجل العرض والشرف وكرامة الأمة، الذين أعادوا سيناء إلى قلب أمها الحبيبة مصر بدمائهم الطاهرة الذكية.

أهدي هذا العمل لأرواحهم المخلدة في الجنة بإذن الله تعالى (الفاتحة على أرواح هؤلاء الجنود الملائكة النبلاء).

- إلى شعب مصر العظيم.
- إلى اللواء عُمر سليمان، رئيس المخابرات العامة.
- إلى سيادة وزير الدفاع بجمهورية مصر العربية.
- إلى سيادة اللواء قائد الكلية الحربية.
- إلى أبنائي: سارة وآمال وربيع وفيروز وخديجة وخالد.
- إلى الأستاذ محمد حسين يس، حفظه الله.

- إلى الدكتور خميس بشر والأستاذة الفاضلة ماجدة بشر.
- إلى شقيقي ربيع عبد السلام بسويسرا.
- إلى الفنان حسن يوسف زكي.

وفقنا الله لما فيه رضاه ورحمته

المقدمة

تقـــديم

رغم الهزيمة المرة التي أحاطت بالجيش في حرب ١٩٦٧م، وحطمت آلياته ومعداته. إلا أنها لم تضعف روحه المعنوية أو تطفىء جذوة الوطنية الكامنة في أعماقه.

وكانت هناك أمثلة من البطولات النادرة بين صفوف الجيش المصري.

وتعتبر هذه القصة بمثابة تسجيل رائع لشجاعة عدد من الجنود المصريين الذين صمدوا في كبرياء أمام العدو ورفضوا الاستسلام، وقدموا أرواحهم فداء لوطنهم.

وتدور أحداث قصتنا في الأيام الأولى لمعركة أكتوبر عام ١٩٧٣م، وهي أحداث بطولية مستمدة من واقع المعركة التي استشهد فيها الأبطال بالكتيبة رقم ١٨٣ صاعقة.

فإلى أرواحهم الطاهرة أقدم هذا العمل تحية وتقديرًا واعترافًا وفخرًا بأمجادهم العظيمة.

خارج المصر

خارج الممر

هناك طريق جبلي

الصحراء ساكنة تمامًا في أخريات الليل، والشمس تبدأ في البزوغ من وراء الأفق شاحبة حزينة، كأنما أضنتها أحزان الأمس، والرمال الممتدة إلى مساحات بعيدة، وبعض الصخور التي تطل برؤوسها من باطن الأرض أشبه ما تكون بالسكاكين القاطعة.

وبجوارها تظهر آثار المعارك التي اشتعلت في الأيام السابقة في المحور الشمالي لسيناء.

ثلاث دبابات محترقة ومحطمة، سيارة ضخمة حاملة للجنود تناثرت أجزاؤها هنا وهناك، وبقايا أسلحة خفيفة منتشرة على الأرض، بقايا القوات الإسرائيلية من معركة الأمس. لا تستطيع أن تميز نوعها أو عددها بعد أن استحالت قطعًا متباعدة لا يربط بينها رابط يشير إلى مصدرها.

وفي نهاية مرمى البصر فوق الرمال يقف جبلان شامخان من جبال سيناء العالية، يفصل بينهما طريق من صنع الطبيعة، يضيق مرة ويتسع مرات ويخترقهما ليصل بالسائر من خلالها إلى مشارف قناة السويس أو قريبًا منها.

وقبل الطريق ترتمي عدة دبابات محترقة ومسودة اللون، ويبدو من

الأجزاء المتبقية منها أنها دبابات إسرائيلية، وعلى صخور الجبل جناح طائرة محترقة، وقد انغرس جزء منها بين الأحجار نتيجة لشدة ارتطامها بالجبل، بينما غُطي باقيها بالأحجار الصغيرة وكميات من التراب والرمل التي تساقطت عليها، وعلى امتداد الطريق المؤدي إلى الجبل قطرات من الدماء غطت مساحات واسعة من الرمال واستحالت إلى لون أسود نتيجة لحرارة الشمس وقسوة الرياح.

وامتصت الأرض هذه الدماء ولكنها لم تستطع أن تمتص الأشلاء المبعثرة هنا وهناك، وإن غطت الرمال أجزاء منها، دون أن تفرق بين عربي وإسرائيلي أو شرقي وغربي؛ فقد ساوى الموت بينهم جميعًا وأزال الفوارق المصطنعة والعداوات الشديدة التي صنعها الأحياء.

وبجوار هذه الأشلاء عدد من الخوذات الحديدية التي يرتديها الجنود تباعد بعضها عن بعض وامتلأ الكثير منها بالرمال فثبتت مكانها. أو بقي في قاعها جزء من رأس جندي، أو خصلات من شعره المتلاصقة بأطرافها، أو سلسلة بيضاء فضية مكتوب عليها (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، ومن خلف السلسلة الرقم العسكري للجندي الشهيد، وكلها تحكي بشاعة الإنسان وغروره واستهانته بالقيم والمبادئ إرضاء لغرائزه التي لا تشبع ولا تستكين، وقبل الوصول إلى الجبلين بمسافة بعيدة يشاهد الناظر تبة مرتفعة، وغير بعيد منها بعض القتلى الذين استشهدوا حديثًا، وتبوح خوذاتهم الملقاة على مقربة منهم بجنسيتهم المصرية، وأنهم بذلوا نفوسهم رخيصة لطرد المعتدي الغاصب على أرضهم، وفوق هذه التبة نقطة مراقبة أقامها رجال الصاعقة المصريون لمداهمة العدو من الخلف، ورصد جميع حركاته، وشل محاولات تقدمه إلى الأمام.

وتحت هذه التبة فتحة صغيرة تؤدي إلى مقر قيادة المراقبة، وبجوار الفتحة كمية من أكياس الرمل يربض خلفها بعض الجنود المصريين ومعهم مدافعهم الرشاشة وقنابلهم اليدوية والأسلحة المضادة لدروع الدبابات، والتي تعمل على إيقافها أو تعطيلها عن التقدم إلى الأمام شرق قناة السويس، كان هذا اليوم هو الثامن من أكتوبر عام ١٩٧٣م؛ أي بعد العبور العظيم بيومين، ووسط هذه الساحة المليئة بالشجن والحزن والخراب والدمار، والتي يحلق فوقها الموت في كل لحظة، ولا تدري إن كان قادمًا إليك من تحت الأرض أو من فوقها، أو عن يمينك أو عن شمالك، تحمله لك قذيفة دبابة أو صاروخ طائرة أو لغم أرضي ضللت السير والطريق فوقه، وبعدها تصير لا شيء بعد أن كنت كل شيء، ولا يحمل لك النسيم في هدوئه أو عنفه إلا دخان الرصاص وعفونة القتلى وجراح المصابين أو حشرجة النائمين على عتبات الفناء، وسط هذا كله جلس الجندي أحمد فوق التبة متدرعًا بسلاحه القوي، تعلو فمه بسمة عريضة لا تفارق شفتيه أبدًا، وبيده اليمنى يضع أصبعه على زناد مدفعه، ويقبض بيده اليسرى على الراديو الترانستور الصغير ويقربه من أذنه ويضمه إلى صدره في حنان وحب؛ لأنه الخيط الوحيد الذي يصله بالعالم الخارجي، والصوت الرقيق الحلو الذي يجمّل ساعاته الطويلة الكئيبة ويخالف الأصوات الصارخة التي تملأ ليله ونهاره.

وينساب من الراديو الصغير ببطارياته الواهنة التي توشك أن تلفظ أنفاسها بعض الموسيقى الهادئة أو الصاخبة، وتلتقط أذناه أغنية عبد الحليم حافظ "خلي السلاح صاحي.. لو نامت الدنيا صاحي مع

سلاحي" ، ويردد مع الراديو كلمات الأغنية ، وحينما تنتهي يقول لنفسه "نحن مستيقظون دائمًا ، لا يعرف النوم طريقه إلينا ، وكيف ننام والموت يقظ منتبه يحيط بنا من كل جانب ونتوقعه في كل لحظة؟" . ويدير مؤشر الراديو نحو محطة أخرى فيسمع أغنية عاطفية للمطربة شادية ، وعلى أنغامها الحلوة التي تقول "أنا قلبي معاك ثانية بثانية لو حتى تروح آخر الدنيا . . ." . ويغمض عينيه في هدوء تاركًا كلمات الأغنية تنساب إلى قلبه ومشاعره . وتسبح به بعيدًا عن أرض سيناء ، وعن الرمال والدبابات المحطمة والجثث المتناثرة هنا وهناك ، ويقفز على أجنحة الخيال إلى بعيد حيث قريته وأسرته وحبه الأول الذي ترعرع في قلبه منذ طفولته وأوشك أن يتوجه بالزواج لولا استدعاؤه للقتال ، وكلمات الحبيبة وهي تودعه قبل أن يرحل به القطار قائلة : أنا قلبي معاك ، وسوف أنتظرك حتى تعود سالمًا بإذن الله . وتنتهي الأغنية فتتقطع معها أحلامه الشاردة ويعود إلى واقعه . محاولاً إصلاح البطاريات التي توشك أن تنفد بعد أن تعثرت الكلمات التي تنبعث منها ويضع الراديو الصغير بجانبه .

وخاطر حزين يستبدّ به ، موحيًا إليه بأن نهاية بطاريات الراديو هي نهاية لحياته وحياة زملائه ؛ فليس أمامهم طريق للنجاة من موت محقق إلا بمعجزة خارقة فجنود العدو يحيطون بهم من كل اتجاه ولا يتركون لهم سبيلاً للإفلات ، وهم قد قدموا للموت ، ولم يأتوا للحياة ، إنهم كتيبة فدائية دربت على تحمل الصعاب ومواجهة الهلاك ، ولم يدفعوا بها إلى هنا إلا لتكون فداء لمعنى أكبر من حياتهم ، إنهم سيموتون لإنقاذ بقية الجيش وحياة مصر ، ومهمتهم واحدة هي التقدم نحو المحور الشمالي لإعاقة تقدم القوات الإسرائيلية نحو شط القناة .

وأشعل سيجارة وراح يمتص دخانها ثم ينفثه فيخرج من فمه وأنفه متعرجًا ملتويًا، ويتلاشى مع رياح سيناء العابثة، بينما سحب من الدخان الكثيف تتصاعد من خلف التلال الكثيرة وتذوب أيضًا مع الريح، فتتبعها موجات أخرى من الدخان تذهب ويجيء بعدها سواها.

إن الحياة هنا دخان في دخان خنق النسمة الجميلة التي تداعبهم. ونظر حوله فرأى بقايا أعقاب السجائر وبعض المعلبات الفارغة التي أكلوا محتوياتها، وزمزميات المياه وهي توشك على الجفاف ولم يبق فيها إلا القليل، وتحت التبة أحذية ملقاة وملابس ممزقة ومخلفات للجنود الذين قتلوا في معارك الأمس، حملتها الريح قريبًا منهم لتذكّرهم بالمصير الذي ينتظرونه. وارتشف أحمد قطرات قليلة من الماء رطّب بها حلقه الجاف، ونظر إلى الرقيب خالد وهو يحاول جاهدًا إصلاح جهاز اللاسلكي المعطل مما جعلهم يفقدون الاتصال بمقر قيادتهم في جبهة المواجهة ليتلقوا منها التعليمات.

ومع مهارة الرقيب خالد في إصلاح تلك الأجهزة وخبرته بها إلا أنه عجز عن علاجه لتلف قطعة غيار فيه، فوضعه إلى جانبه في قلق وتوتر محاولاً أن يجد وسيلة ما لإصلاحه، ونحى يده جانبًا فارتطمت بأقدام حسن الممددة بجواره وقد أنبطح على ظهره ويداه ممسكتان بمدفع البازوكا.

فقال له: لا فائدة ترجى من إصلاحه، لقد حاولت بكل الطرق ولكنني فشلت لأنني لم أجد معي قطعة الغيار التي يحتاجها الجهاز.

فقال حسن: أي أننا لن ننتظر تعليمات من مقر القيادة أو إمدادات منها.

ورد الجـندي جـرجس بسرعة : عليك أن تخبر المقدم كمال الرفاعي بفـشلك في إصـلاح الجهاز ليعد خططه وينظمها للمستقبل . إنه موجود في الـداخل مـع بعض الجنود لتنظيف المدافع وإعدادها وحصر المتبقي من الـذخيرة، ومعـه العـريف سيد زكريا الذي حطم بالأمس ثلاث دبابات للعدو .

وعلـى حافـة التـبة جلس الجندي إيهاب في ظل صخرة بارزة وراح يكتب عليها بخط بارز : أكتوبر ٧٣ ، وبجوارها كتب الأرقام الآتية : ١ـ٢ ـ٣ـ٤ـ٥ـ٦ـ٧ـ٨ أكتوبر ، وفوق هذه الأرقام كتب رقم ٨ وبستان صخرة ثم كتب على اليسار الساعة ١٤٠٠ .

عـاود الـرقيب خالـد محاولاته مع الجهاز مرة أخرى ، واستمر يقلب فـيه يمينًا ويـسارًا ، ويفكـه ويربطه ، ثم ألقاه بجواره وهو يتصبب عرقًا ، وبدا عليه اليأس ونظر إلى من معه قائلاً : مفيش فايدة .

حســن : لا فائدة؟

خالــد : نعم ، لا فائدة .

جـرجس : ما دام الأمل انقطع فلا تتعب نفسك فيه .

أحمــد : كـيف يـسكت؟ إن هـذا معـناه أن صـلتنا بالجـيش قـد

إيهــاب : ولـن نستطيع أن نأخذ أوامرنا من القيادة العامة الأمل أننا نقاوم العدو حتى آخر نقطة دم في حياتنا كلنا .

أحمــد : إن كـل مـا أعـرفه ويعـرفه المقـدم كمـال الرفاعـي قائـد المجمـوعة ويجـب أن تعـرفوه أنـتم . أن الأوامر تقول لنا شيئًا واحدًا وقالته لنا قبل حضورنا إلى هنا .

جــرجس : في لهفة . وما هي هذا الشيء .

أحمــــد : لـن نـدع دبابة إسرائيلية تعبر من هنا إلى الشمال وتمر من خلال هذا الطريق .

إيهــــاب : إن الأسـلحة التي معنا قليلة والذخيرة تناقصت كميتها . ونـصف مجموعتنا استشهدت أمس وأول أمس حتى الماء الذي معنا لا يكفينا أكثر من يوم .

أحمــــد : مهما كانت الظروف . لقد حضرنا جميعًا للاستشهاد .

ويـشعر المجـند جابـر بحـركة غـير عادية خلف أحد الكثبان الرملية العالـية ، فيـستأذن قائـده للـذهاب إليها لمعرفة ما يدور خلفها ، ويأذن له القائد على أن يؤازره الجندي شريف في مهمته .

ويهـبطان مـن أعلا التبة وهما مستعدان استعدادًا كاملاً للدور الذي يقـومان به . . كانا مبتسمين مؤمنين بالرسالة التي يؤديانها ، ويعلمان أن ثمـنها التـضحية بـروحهما ولـن يـبخلا بهـا على مصر ، وعبرا أكثر من كثيب رملـي وخلف كثيب مرتفع تعلوه أشجار ونباتات جافة أوشكت الـرمال أن تغطـيها شـاهدا بعـض الخوذات العسكرية تتحرك من أعلاها وتظهـر أطـراف الشباك من جوانبها . وتأكدا أنهم من جنود العدو ومن فرق استطلاع تتقدم الكتيبة الزاحفة .

وأخـذ جابـر موقف المهاجم وشريف موقع المدافع ، وأسكت جابر صـوت الـراديو الصغير الذي يلازمه . كان يذيع أغنية وطنية جميلة يحبها جابـر ولا يمـل سماعهـا أبـدًا ، هـي أنـشودة مـصر تـتحدث عن نفسها

للمطربة العظيمة أم كلثوم. وحتى يتمكنا من الهدف الذي يريدان لابد لهما من الصمت التام ليفاجئا العدو ويأخذانه على غرة، وصمتت الصحراء حولهما فلم يسمعا إلا عصف الرياح وهي تصطدم بنبات الشوك الجاف وجذوع الصبار التي تطل من هنا أو هناك، وتجور على الرمال النائمة فتحملها من أماكنها إلى أماكن أخرى بعيدة وتضع مكانها بديلاً عنها، وكأنها تثير فيها الحركة لتجدد نشاطها وتبعث فيها الحياة، بعد أن فقدت رؤية الإنسان لدهور وأزمان طويلة. ودار جابر عدة دورات حول الكثيب الرملي حتى تأكد من وجود جنود العدو وأنهم صاروا هدفًا ناجحًا لبندقيته، وعندئذ أطلق رصاصاته المتتابعة فألقت بهم صرعى على الأرض يتخبطون في دمائهم.

وشاهد شريف مجموعة أخرى متجهة نحو مصدر النيران الذي يصبه جابر عليهم، فتصدى لهم وأسقط عددًا كبيرًا منهم. وأصيب جابر من أحد الأعداء الذين تمكنوا من التسلل قريبًا منه فعاجله شريف بطلقات قاتلة، وأسرع إلى جابر الذي فقد توازنه ومال برأسه على حجر قريب منه. وثقلت بندقيته على ذراعه فتهاوت بجواره وسكت الراديو الذي كان يؤنس وحدته بعد أن غطته الدماء الحارة التي تفجرت من الجسد الشجاع القوي. وحاول شريف أن يحمله ليعود به إلى الموقع الذي ترابط فيه بقية القوة المصرية، إلا أن أعضاءه بدأت تتراخى وتثقل وسبحت عيناه إلى بعيد وأمسك بيد شريف وقال له بنبرات متقطعة واهنة: دعني يا شريف فلا فائدة من نقلي، ستكون هذه البقعة هي قبري الذي يشهد لي بجهادي عند الله سبحانه وتعالى العلي الكريم، وأريد أن أرى وجه الله النور العلي العظيم، واسمع ما أقوله لك

جيداً . . خذ هذه الساعة الجوفيال وأعطها لأخي ربيع فهو في حاجة إلى ساعة، أما الراديو فلم يعد صالحًا للاستعمال، وأوصيك بأن يذهب معاشي كله لأخي ربيع وأختي آمال . . إنهما عاشا في حرمان طويل وكنت لهما بمنزلة الأب والأم . سوف يشعران باليتم فقط بعد موتي ولكن معاش الجيش سوف يسترهم بعد الله عز وجل، ومالت رأسه إلى الخلف وجحظت عيناه إلى السماء وانطفأ بريقهما اللامع وأصبحا كقطعتين جامدتين من زجاج أملس، وصعدت روحه إلى بارئها تشكو ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، ولم يجد ما يغطيه به إلا منديله الكاكي فأسدله على وجهه ووضع فوقه خوذته حتى لا يطير في الهواء بعد أن قام بتأدية التحية العسكرية لزميله الشهيد، وأخذ بندقية الشهيد حتى لا يستولي عليها العدو وتحامل على نفسه عائدًا إلى موقعه .

ولم يتنبه إلى أنه مصاب إلا حينما شاهد قطرات من الدماء تتبعه وتسير من خلفه ووجد جرحًا غائرًا في فخذه يوشك أن يقعده عن مواصلة رحلته، وظل في خطواته البطيئة المتعبة ونفسه تحدثه بخوفه أن يموت قبل أن يوصل ساعة جابر إلى أخيه . وينفذ له وصيته التي عاهده على القيام بها قبل موته، وشاهده المقدم إبراهيم الرفاعي فأرسل إليه من يعينه على الوصول إلى التبة العالية ويحمل عنه الأسلحة التي تثقله .

وألقى بجسده الجريح بين زملائه ونعى إليهم زميله البطل جابر بعد معركة أثبت فيها فدائيته ورجولته، وقدم لهم الساعة وحدثهم بوصية جابر له قبل أن يلاقي ربه، وأكد عليهم أن يبلغوا آخر رغبة لزميلهم الراحل فهو لا يستطيع تحقيقها لشعوره بقرب نهايته .

ولم يسمع زميله عادل وهو يقول : ومن الذي سيبقى منا لينفذ هذه الوصية ، ولا بد أن نتواصى على الاستعداد للموت اليوم أو غدًا . وراح شريف في إغماءه طويلة لقي خلالها ربه راضيًا مرضيًا .

ملجأ الأفراد

ملجأ الأفراد

نظر الرقيب خالد في ساعته وهو يهبط داخل الملجأ وبعد أن أدى التحية العسكرية للعقيد إبراهيم قائد الفصيلة وحيا زملاءه الجنود الذين يشاهد بعضهم مستغرقًا في النوم بنما آخرون يعدون مدافعهم للاستعمال لتولي المهمة مكان زملائهم الذين يربضون في أعلا التبة وفتح الرقيب خالد فهمه في بسمة باهتة وهو يدغدغ الجندي مصطفى المستغرق في نومه قائلاً:

خالد : استيقظ يا مصطفى ويكفيك نومًا.

مصطفى : إنني لم أنم أكثر من بضع دقائق، وكيف أنام وصرير الأسلحة يصم أذني ويطير النوم من عيني؟

خالد : قم يا رجل وانزع الغطاء الحريري من فوق جسدك، وخذ حمامك المعطر، وتناول إفطارك الشهي الذي أعدته لك عروسك الجميلة التي تجلس في انتظارك على مائدة الطعام.

مصطفى (بعد أن قام من رقدته): لا تسخر يا خالد. فلم يزد سريري عن بساط ناعم من الرمل، ووسادتي عن جدار أملس أغطيه بطاقيتي العسكرية. أما غطائي فهو مدفعي الذي لا يفارقني لحظة.. إنه حبيبي الذي أناجيه وأودعه سري في يقظتي وأحلامي في نومي.

خالـــــــد : إنـني أداعبك يا مصطفى، فلم يعد أمامنا طريق غير هذه المداعبة الـتي نسري بها عن أنفسنا. ومن يضحكنا؟ إذا لم يـضحك كـل مـنا الآخـر؟ فـنحن لا نـدري إن كـنا سنـستطيع الـضحك بعد قليل أم تموت هذه الضحكات علـى شفاهنا إلى الأبد. ثم يتجه الرقيب خالد إلى العقيد إبـراهيم ويجلـس بجـواره وهمـا يتـبادلان حديـثًا جـادًا وينظران في بعض الأوراق التي أمامهما.

ويتحــرك الجـنـدي مـصطـفى مــن مـكانـه فيلتـقي بمحمود حيث يدور بينهما الحديث التالي:

محمــــــود : مـاذا بقـى عـندك مـن التعين يا مصطفى؟ إنني أشعر بـشيء مـن الجوع والظمأ. وكم أنا في حاجة إلى بعض أنفـاس مـن سـيجارة كيلوباتـرا وكـوب مـن الـشاي الساخن.

مصطـــفى : لم يـبق لديـنا إلا بعـض المعلـبات وقليل من الماء. أما الـسجائر فـلا يـزيد تعدادها عن علبتين لكل واحد منا سـيجارة في مواعيد محددة، ولا يتجاوزها إطلاقًا مهما كانت الظروف.

وينظـر خالـد نحو جهاز اللاسلكي الذي ينام بين رجليه ساكنًا هادئًا بلا حركة ويقول:

خالـــــــد : لـو كـان الجهـاز صالحًا لأمكننا الاتصال بمقر القيادة لإمـدادنا بمـا نحـتاجه. وهي لن تعدم وسيلة تحددها

هـي أو نحـددها نحـن لمساعدتنا بالـذخيرة والطعـام وبعـض جنود الـصاعقة ليعوضـوا الـشهداء الـذين فقـدناهم في الـيومين الـسابقين بعـد أن أدوا واجبهم على أكمل وجه . ولكن العطب الذي أصاب الجهاز جعـل القـيادة لا تعرف موقعنا بالضبط ولا تدري إن كنا من الأحياء أو الأموات .

محمـــــــــود : ولكـن ألا تـشعر مخابـراتنا العسكرية بما نقوم به؟ ألم يأتهـا نـبأ الـدبابات الـتي حطمناها والمجنزرات التي أحرقناها؟

جـرجـــــس : لقـد تمكـنا في الأيـام الثلاثة الماضية من إعاقة دبابات العـدو وشـل حـركته علـى الـرغم مـن قلة عددنا ، وكـبدناه خـسائر فادحـة في الأفـراد والمعـدات والـدبابات ، وقتْلاهم أمامنا يملئون الرمال التي تحيط بـنا مـن كل جانب . ولا بد أن القيادة لا تخفى عليها هـذه الأعمـال وتـشعر بهـا من على البعد حتى وإن تعطل الجهاز اللاسلكي .

خالـــــــــد : أشك في هذا كثيرًا . فلو كانوا يعلمون لما تركونا هذه الأيام دون مساعدة لنتمكن من مواصلة أداء مهمتنا . وربمـا حالـت بيننا وبينهم كثافة نيران العدو ورصده لكـل حـركة تظهـر مـن الغـرب ولا سـيما بعـد أن اكتشفوا موقعنا وحددوه تمامًا .

وجلس بعض الجنود يتناولون طعامهم الذي لا يزيد عن قطع صغيرة من الجبن وبقايا مما في المعلبات المحفوظة، وبضعة أرغفة اقتسموها فيما بينهم، وجرعات قليلة من الماء تساعدهم على ابتلاع ما يأكلونه.

عبد اللطيف : في مثل هذا الوقت من صباح الأمس كان يأكل معنا عبد الحي ومصطفى ونادر ووائل وغيرهم. ولم يبق معنا الآن إلا ذكراهم بعد أن فقدناهم في معركة الأمس ٧ أكتوبر، حتى أشلاؤهم لم نتمكن من العثور عليها لدفنها، وبقينا نحن بعدهم سالمين.

محمد : إلى متى سنظل سالمين؟ إلى مساء اليوم أو صباح الغد؟ إن حياتنا لن تزيد عن هذا الموعد. فلو هاجمتنا طائرة واحدة أو دبابة أفلتت من نيراننا لدمرتنا عن آخرنا في ثوان. يا أخي ما بقى من طعام فربما لن نذوقه بعد الآن.

حسين : إن الطيران لا يستطيع أن ينسف هذا الموقع الغائر في أسفل الجبل الذي يحمينا. وكذلك الدبابات لا يمكنها الاقتراب من هنا ما دام سيد زكريا موجود؛ فعيونه كالصقر لا تخطيء هدفًا، وأمامك الدبابات والمجنزرات التي نسفها بالأمس وعشرات اليهود الذين أبادهم. وهو الآن يعد سلاحه للمعركة القادمة.

ذكريات

ذكــــريات

أحس الجندي أنور بالظمأ الشديد فتناول قارورة بها ماء قليل احتسى بعضًا منه وترك الباقي لزميله الجندي المضطجع بجواره، وعادت به ذاكرته إلى أيام قليلة ماضية قبل أن يُستدعى للجبهة . . أين هذه القارورة بمائها الساخن الذي يشوى القلوب والأمعاء من ماء الثلاجة بشفته وما فيها من الطيبات؟

وما أبعد الفرق بين هذا الخندق الغائر في أعماق الأرض وتطن أو تزحف به الحشرات من كل جانب، وبين شقة الراقصة والمطربة سوسو وما تحتويه من أثاث حديث مريح يوحي لك بالراحة والسعادة .

وأخذ يدندن ويترنم بشفتيه باللحن الذي وضعه للراقصة سوسو قبيل حضوره إلى هنا . . حقًا إنه لحن لا يعجبه ولا يتناسب مع الموهبة الموسيقية التي جعلت له شأنًا يذكر في عالم الموسيقى والتلحين، ولكنه استجاب لطلب سوسو ومؤلف الكلمات؛ لأن هذه هي رغبة جمهور الصالات والملاهي الليلية التي تجمع أشتاتًا من الناس يختلفون في طبائعهم وأمزجتهم . . فهذا عربيد يتمايل مع غناء ورقص سوسو، ولا يتورع عن لمس جسدها أو التفوه بألفاظ تخدش الحياء، وهي لا تخجل أو تتهرب من هذا الفعل بل تتمادى في حركات الإغراء، وذلك العمدة الثري الذي جاء من أعماق الريف ممتلئ الجيب بالنقود ومعه بعض أصدقائه من التجار أو السماسرة ليقضوا سهرة منوعة ناعمة، تنسيهم

خشونة الريف وجفوته وحزنه، وغيرهما من المترددين الذين ينثرون المال تحت قدميها في تسابق ورغبة.

وهي لا تصد أحدًا بل تستجيب للجميع بطريقة أو بأخرى ما دامت هذه هي الوسيلة لانتزاع المال من بين أيديهم. كما أنها مقتنعة بسلوكها وطريقة تعاملها مع الناس، وتعتقد أن شأنها سيرتفع في يوم ما لتصبح راقصة ومطربة يجثو الجميع تحت أقدامها، ولا تهتم باعتراض أنور على ما تفعل لأنها تعرف طريقها تمامًا وليست في حاجة إلى نصيحته وتوجيهه. فالصعود إلى القمة كثيرًا ما تكون بدايته أقدام ملوثة بالوحل، والوصول إلى الشهرة والمجد لابد أن يمهد له تصفيق هؤلاء السكارى والضائعين.

وإذا لم يلحن لها هو فسوف تختار غيره، وما أكثر الذين يمدون أيديهم إليها ويتقربون منها. وهو في حاجة ملحة للمال ليستعين به في حياته، ولا يريد أن ينضب هذا النبع الذي يرتوي منه، ولا ينسى إعجابه وصلته العاطفية بها منذ أن كانت خادمة عند أحد الأثرياء والتقى بها عند المكوجي والبقال ورقصت له في شقته. لقد أعطته وأعطاها.. أعطته الحب الملتهب المعربد وكانت بين يديه جذوة من النار كعاشقين. وأعطاها مفتاح المستقبل حينما قدمها إلى واحدة من صالات الرقص المتواضعة ولحن لها أغنية مرحة مثيرة، وجدت قبولاً ورضى من المشاهدين والسامعين، لأن الله منحها جسدًا فاتنًا، وعرفت هي قيمة هذا الجسد فاستغلته الاستغلال المناسب وجعلت منه الشباك التي يسقط فيها جميع الصائدين، وكانت مع ذلك كله محافظة على شرفها.

وانتقلت من صالة إلى أخرى حتى استقرت في هذا الملهى الذي تعمل به واتخذت لها فرقة وحاشية يلازمونها في رقصها وغنائها ويرفعون من قيمتها وشهرتها والهتاف باسمها. ولم تنس أن تحيط نفسها بعدد من البلطجية يكونون سياجًا وحماية لها عند الضرورة في الفنادق ذات الخمس نجوم واشتدت في استمالته إليها لأغراض كثيرة، ربما كان من أهمها أنه يعرف ماضيها الذي تجاهلته تمامًا ونسيت نشأتها وتربيتها عندما تركت هذه الحياة وانتقلت إلى وسط آخر لا يمتّ بصلة من قريب أو بعيد إلى البيئة التي ترعرعت فيها. وأقنعت الجميع أو خدعتهم بصدق ما تقول. وسار معها في هذا الطريق مسدلاً ستارة كثيفة على الماضي بكل ما فيه ما دام يثير جراحًا وآلامًا لكل منهما.

ويبتسم أنور وسط هذا الجو المشحون بالتوتر حينما يتذكر الليلة السابقة لاستدعائه وهو يقف معها في الصالة يعزف لحن الأغنية الجديدة التي أعجبتها ولم تعجبه، ويعلن المذيع عن مطربة الموسم بأغنيتها الجديدة من تلحين الأستاذ أنور الشاطر، وتقول كلمات الأغنية :

شارد في الليل يختلس الخطى
نحو أفق ليس يدركه مدى
إنه قلبي أطاح به الهوى
فمضى يشدو على غير هدى

***

ذكرى الأحباب تعاوده ولهيب الشوق يطارده

والفجـــر تمهـــل مــــوعده (يالــيل الــصب متــى غــده)
مــنذ عــام كــان مــوعدنا غــداً كــم مــرّ أمــس ومــا حــان لقــاء
وانقــضى صــيف وصــيف وأنــا صــيف أحلامــى خــريف وشــتاء

***

يـــــا حبيــــــبًا خـــــان ودي
قـــــل أحقـــًــــا خـــــنت ودي

***

لـــى أمـــل فـــيك أراوده عـــن شـــغف بـــتّ أكابـــده
لـــيل الحـــرمان يجـــدده (يالــيل الــصب متــى غــده)
يـــا حبـــيبى طـــال ليلـــى فاذكـــر الأمـــس القـــريب
وبحـــق الأســـى قـــل لـــى واكـــشف الــسر الــرهيب
هـــــل نــــــسيت
مـــن كـــان يعـــشق في كفـــيك خطـــوط العطـــف والـــرحمة
ألـــــست أنـــــا . . .
مـــن كـــان يعـــشق في عينـــيك شـــروق الفجـــر في بـــسمة
ألـــــست أنـــــا . . .
مـــن كـــان ينهل من شفتيك رحيق العمر
ألـــست أنـــا . . . وأيـــن أنـــا؟
لا تـــــستبد بأســـــري لا تـــــستهن بـــــصبري

إن لم تعـــد يـــا قـــدري فأنـت مـن يـسكن صـدري
ويعـــود لقلـــبي ســـؤدده همـــسات مـــنك تهدهـــده
ويطـــول اللـــيل وأســـجده (يـا لـيل الـصب متـى غـده)

وتـضج القاعـة بالتـصفيق، وتتمادى هي في رقصها، فيبلغ الهوس بالناس أقصاه، وتمتد إليها الأيدي، وتترامى تحت أقدامها الجنيهات.

ثـم يوشـك الليـل أن يـرحل، وتعود سوسو إلى حجرتها لاسـتبدال ملابـسها. وقـبل أن تغـادر الملهى تخرج من صدرها ورقة مطوية تعطيها لأنـور قائلـة لـه: "هـذه كلمات الأغنية الجديدة التي ألفها الأستاذ أنور وأريـدك أن تلحـنها سـريعًا لأغنـيها بعـد غد. إنها ستهز الدنيا وتطرب الناس".

ولم يـذهب إلى شـقتها في هذه الليلة بل تركته وخرجت إلى منزلها. إنـه دائمًـا بالنـسبة لهـا الاحتياطـي الذي تدخره لحاجاتها مادامت لا تجد البديل المناسب الذي تبحث عنه.

وفتح أنور الورقة وقرأ الكلمات التي كتبها الأستاذ. وبعد أن أكمل قـراءة كلمـات الأغنية طوى الورقة ووضعها في جيبه وهو يقول لنفسه: هـذا هـو الطعـام الشهي الذي يقبل عليه الناس. إنه طعام لا قيمة له ولا فائدة. أين الكلام الجميل القوي الذي يثير الهمم ويلهب المشاعر؟

ولكـن ما دامت سوسو تريد ذلك والجمهور يحبه ويتهافت عليه ولا أجـر ولا مـال بـدون هـذا اللـون الساقط من الفن، فلا يجب أن أتمرد أو أعترض ما دام تمردي واعتراضي لا قيمة لهما ولا يغيران من الأمر شيئًا،

وعليّ أن أسير في هذا الطريق وإن كان يدمي أقدامي ولا أرتضيه .
وخفض رأسه إلى الأرض وسار يتطلع إلى الأمام ولا ينظر إلى الخلف .

ونظر إلى بشائر الفجر الوردي وهي تنثر قطع النور على المرتفعات وقمم المآذن العالية ثم تتساقط منها إلى الأماكن المنخفضة . فتضيء المعالم أمامه بعد أن اختلطت بأضواء المصابيح الكهربية وقد تضاءلت أنوارها وانكمشت أمام أنوار الصباح . ويزداد البريق أمامه وهو يسير في الطريق .

وتتراءى عن يمينه وشماله صور متعددة تبعد تفكيره تمامًا عن صالة الرقص والمخمورين والعابثين ، وتقع عيناه على مجموعة من الكناسين ينظفون الشارع ويزيلون منه فضلات الليل وأوساخ الناس ويلتقطون ما يجمعونه ويضعونه في سلال معدة لذلك ليعود الشارع نظيفًا لامعًا قبل أن تطأه أقدام المارة مع سقوط الأمطار التي تغسل الشوارع وتجعله يلمع كالمرآة البراقة الجميلة .

وغير بعيد منه شاهد مجموعة من طلبة المدارس يعبرون الطريق ذاهبين إلى معاهدهم ومدارسهم يحملون حقائبهم في أيديهم أو مدلاة خلف ظهورهم ، ويقبضون في أيديهم على بعض الساندويتشات يلتهمونها بسرعة وهم يتحدثون أو يتدافعون بالمناكب ، ويجري بعضهم خلف بعض غير عابئين بشيء ، وتَعبث أقدامهم بما يصطدم بها فوق الأرض من حصى أو طوب فيدفعونه إلى الأمام كأنه كرة يتقاذفونها فيما بينهم .
ووقعت عينه على عمال يصلحون شريط الترام ويثبتونه في موقعه ،

وآخرين منهمكين في تسليك مواسير المجاري ينتزعون منها ما يسد فتحاتها ويعوقها عن الانسياب، ويضعون ما يخرجون منها على جانب الطريق فتنتشر روائحه الكريهة تزكم الأنوف. وربما تظل هذه الفضلات في أماكنها عدة أيام إلى أن تجف وتتناثر ذراتها في الهواء.

والعمال نشيطون في عملهم. بعضهم تدلى في أعماق الفتحات وبقيتهم يقفون في أعلاها يرفعون ما يدفعه إليهم زملاؤهم ليضعوه قريبًا من الفتحات أكوامًا بعضها بجوار بعض. وأسرع أنور بعيدًا عنهم وانحدر إلى شارع جانبي وشمس الصباح قد ملأت أشعتها المنازل والطرقات وتسللت من النوافذ لتوقظ النائم الكسول أو تدغدغ الحسناء المتراخية فوق سريرها الوثير، وتهيب بالمتأخرين عن أعمالهم أن يسارعوا إليها.

ولمح أثناء سيره بعض النوافذ وهى تفتح مصراعيها لتستقبل شمس أكتوبر الدافئة التي تنهيأ للنصر العظيم لتفتح الطريق بعدها لقدوم الشتاء الذي أقبلت خطواته على استحياء وضعف، يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، ومن خلف النوافذ أياد جميلة ناعمة، والجميلات وما يخفين مما يلهب الأحاسيس ويثير الغرائز، وخصلات من الشعر تتناثر فوق رءوس جميلة تبهر العيون والشفاه والخدود، وتحاول الأصابع الناعمة أن تنحيها جانبًا فتأبى إلا التمرد والانتشار.

وأحس بالجوع ولكنه واصل سيره يتأمل كل نافذة تفتح متلصصًا بعينيه على كل شيء خلفها. حتى استوقفه محل مفتوح تضيء داخله بعض الأنوار فتقدم منه ودخله عله يجد فيه ما يشبع جزءًا من جوعه،

فـإذا هـو مخبـز ، فاشـترى منه ما يريد ، وتأمل العمال وهم منهمكون في عملـهم وقطـرات مـن العرق تتفصد من جباههم ووجوههم فيجففونها بـسرعة حتـى لا تتـساقط حباتها فوق العجين الذي يصنعون منه أصنافًا متعددة مما يشتهيه الناس ويأكلونه .

وخطرت في ذهنه مقارنة سريعة بين ما يجرى في الملهى الراقص طيلة اللـيل وما ينتهك فيه من قيم ويبدد من مال ويُذوب من خلق ويعربد من فجـور . وبـين مـا يشاهده الآن من عمل شاق وكفاح مرير وإصرار على مواصـلة الحـياة والـتغلب علـى قـسوتها مهمـا أظلمـت الرؤية وكثرت الأشـواك ، وتأثـر وبكى عندما وجد عمال التراحيل ينامون فوق كوبري بحر الجيزة في قسوة البرد مع معداتهم الحديدية لبناء البيوت .

نعـم إنهـا حـياة غريبة . . تعطي أحيانًا بلا حساب أو منطق ، وتحرم بـلا حـساب أو منطق أيضًا . . له في ذلك حكم ، وترفع وتخفض دون أن يتـبين الإنسان سببًا مريحًا لما تفعل ، ومع هذا فإن نهرها يتدفق بلا حواجز أو حدود .

واقـترب من المنزل الذي يقيم فيه فاشترى الصحف وبعض ما يحتاج إلـيه في يـومه ، إنـه لا يريد أن يغادر المنزل حتى ينتهي من تلحين الأغنية الـتي أعطـتها لـه سوسـو ، ويـا ويله إذا لم ينته منها اليوم ، فهي حريصة علـى أن تغنـيها مـساء غـد حتـى تودعَ بها آخر زبائنها من أغنياء البلد ، وتـترك في قلـوبهم وغرائـزهم نـشوة عارمة قوية يذكرونها بها ويعودون إلـيها في وقت قريب أو بعيد دون أن ينسوها أو تحل مكانها واحدة أخرى من مطربات وراقصات الملاهي لتأخذ ما في جيوبهم .

وتذكّر الست نوال صاحبة المنزل . . لابد أنها استيقظت الآن وتريد منه أجرة الشقة بعد أن طالبته بها بالأمس ووعدها بدفعها اليوم .

إنها أرملة ورثت المنزل عن زوجها الذي باعه لها قبل أن يموت حتى تقبله زوجًا وتستمر في البقاء معه بعد إصابة زوجها السابق في معارك ١٩٦٧م إصابات جعلته من المعوقين الذين فقدوا القدرة على السير والعمل وفي حاجة إلى زوجة وممرضة معًا ، وهي سيدة ممتلئة الجسم تتمتع بشيء غير قليل من الأنوثة تجيد استخدامها ، وقبلت الدور الذي أراده لها القدر راضية مختارة ؛ لأنها لم تجد في حياتها الفقيرة بديلاً عنه ، ومع أنها متوسطة العمر إلا أنها متصابية تظهر نفسها أقل من سنها الحقيقي بما تلبسه وما تفعله من أفاعيل ، وحاولت أن تتقرب منه بعد فقدها لزوجها واختلقت أكثر من سبب للحديث منه وجذب انتباهه ، فربما يكون زوجها المرتقب ، فمرة تحدثه عن الأجرة ومرة عن بعض الإصلاحات المطلوبة في المنزل ، ورجته أن يتكرم ويدفع لها العوائد لأنها وحيدة كما يعلم وتعيش بمفردها .

ودعته أكثر من مرة لزيارتها ، فهم ـ كما تقول ـ أخوة وجيران ، وكانت دعواتها مغلفة بالرغبة والأمل التي لم تحاول أن تظهرها صريحة ، وإن عبرت عنهما بعينيها وبعض الحركات . وخاف أنور احترامًا لزوجها الراحل واختارها دون غيرها وقدم لها كل ما يملك .

ولم يتأكد أنور إن كانت تريده لنزوة أم ليتزوج بها . ووقف منها موقفًا متوسطًا لأنه لا يريد إغضابها أو إثارتها ، فلم يصدها أو يرفضها ، ولم يضعف أمامها مرة واحدة ، بل بسط لها الأمل وجعلها تنتظر

اللحظة التي تتمناها ليحققها برغبته هو، وتطيل هي في التودد إليه ولا سيما وأن شقتها ملاصقة لشقته. ومن النافذة المطلة عليه تتفنن في إثارته متجاهلة أنها تراه أو أنه يراها.. إنها غالبًا تريده زوجًا مهما كان الثمن. وضحك بينه وبين نفسه لأن تجاهله لها لم يكن لعفة فيه أو كراهية لها وإنما لشيء آخر هو موقفه من سوسو. إنها تلح عليه أن يتزوجها لتكون في حمايته ويعرف الجميع أن لها زوجًا يدافع عنها ويقيها شرور الليل.

إنها أعطته الكثير مما يريده منذ أن كانت خادمة إلى أن صارت راقصة ومطربة معروفة.. لا يعرف أحد ماضيها إلا هو، وكأنهما من فصيلة واحدة، ومنبع متشابه. فوالده رجل فقير عجز عن تربية أبنائه لكثرتهم فدفعهم للعمل في أي مكان حتى يكسبوا ما يعيشون منه، ويستقلون بأنفسهم، فعمل موظفًا عند أحد الملحنين المعروفين وعاش في ظله مدة طويلة، وأعانه ذكاؤه وإخلاصه وحب الملحن له أن يتعلم منه فنه، وبمرور الأيام أجاد استعمال الآلات الموسيقية، وعرف كيف يضع لحنًا بسيطًا، وقد ساعده فيه سيده وأرشده إلى ما يجب أن يفعله، بل دفع به إلى أحد الملاهي كعازف في فرقة موسيقية، ومطرب أحيانًا، ومؤلف مرات كثيرة؛ حتى يمارس فنه ممارسة عملية مستمرة، وبذلك لم ينقطع اتصاله بالملحن.

وفي تلك الفترة عرف سوسو وكثيرًا ما استدعاها لشقة الملحن في فترات سفره الطويلة وأهداها بعض ما في شقة الملحن من ملابس، فعنده الكثير الذي لا يعرف عدده وهي تأخذ منه كما يأخذ غيرها.

ورآها الملحن مرة في شقته، ولم يتورع أنور أن يقدمها له فحدثت صداقة قوية، وقبلت هي الصداقة في سعادة وسرور.

وأصبحت صديقة للأستاذ، وتفتحت عيناها في شقة الملحن أنور على جميع ألوان الترف والجاه والثراء الذي لم تكن تحلم به أو تتخيله من قبل. فهي لم تعرف في حياتها غير الحرمان وهذا السرير المتواضع الذي تنام عليه في بلكونة المطبخ التي أعدت لها كحجرة، وكان أول معرفتها بالحب في داخلها حينما أغراها سيدها وزين لها طريق الغواية والانحراف، واستجابت له راضية أو كارهة. واستمرت علاقتها به فكانت تهيئ له الفرصة المتاحة بعد أن أيقظ فيها غرائزها النائمة التي توشك أن تحرقها وتجرفه.

وأصبح سيدها ملكًا لها وهي الآمر الناهي في البيت، وكأن الزوجة غير موجودة سواء أدركت ذلك أم لم تدرك، وبينها وبين نفسها تقارن بين اثنين تعرفهما، فشتان ما بين سيدها الخشن، وصديقها الملحن الذي تستمتع بكلماته الجميلة الناعمة الشاعرية، وشتان بين لقائها الخائف المرتعش مع سيدها وبين لقائها مع أنور الملحن حيث ترتدي الملابس الأجنبية، وتترك لغريزتها العنان لتفعل ما تريد وتعبر كما يحلو لها دون أن تخاف أن يسمعها أحد أو يراها مشاهد، وشتان بين ذهابها بعد ذلك إلى حمام سيدها متلصصة حذرة، وبين هذا الحمام الفخم الذي يشبه حجرة كبيرة، حيث تغتسل بمائه الساخن ومنظفاته العطرة وجوه الساحر المنعش، وتخرج منه تخطر في دلال كملاك يخرج من جنته.

ومن هنا تمردت على الوسط الذي تعيش فيه ورسمت لحياتها طريقًا آخر صممت على أن تسير فيه، وكان لها ما أرادت، ولم تنس دوره في حياتها فظلت علاقتها به متصلة لا تحرمه شيئًا يريده من جسدها أو مالها، لكنها لا تعطيه إلا بقدر كأنها تدخره ليوم تعده له ولا تريده أن

يفلت من بين يديها. فلا تسرف في المال حتى لا يتمرد، أو في الحب حتى لا يرتوي، بل ظلت تدنيه وتقصيه، وترضيه وتغضبه، وربطته بها حتى لا يستطيع منها فكاكًا.

والآن جاء الدور الذي تعده له، ونسجت خيوطه بإحكام ليقوم بتنفيذه، فطلبت منه أن يكافئها على ما قدمت تضحية، وأن يعطيها بقدر ما أعطته.. أن يتزوجها ويعيش معها كما يعيش الزوج مع زوجته، وسوف ينعم بالخير الوفير الذي تنعم به الآن ويصير كل ما معها ملكًا له.

وحار أنور في أمره، فوقف منها كموقفه مع الست نوال صاحبة المنزل، لم يرفض رفضًا صريحًا أو يقبل قبولاً سريعًا، بل ترك الأمر معلقًا. وقال لسوسو: إنه سيكون سعيدًا بزواجه منها، ولكن هناك أمور وواجبات تجاه أسرته يجب أن يفرغ منها وبعد ذلك يحقق لها ما تريد.

واطمأنت هي إلى وعده، واستراح هو لرضاها، ولكن هل يتزوجها ويستجيب لإلحاحها عليه، هل يرضى أن يكون الغطاء الذي تداري به عفونتها والساتر الذي تتواري خلفه لتفعل من ورائه ما تريد، هل يستطيع أن ينتظرها كل ليلة ليوصلها إلى المنزل بعد عملها حتى الصباح في الملهى، وإذا أرادها لنفسه ترفضه باستعلاء، وإذا استجداها تقدم له ما بقي من أشلائها ساخطة كارهة مثل الإنسان يأكل على شبع. وإذا قدر لها أن تنجب ابنًا كما تريد لابد أن تقع على أغنى أغنياء البلد، ولكن كان قلبها متاقضًا لأنها تحبه فعلاً.

أيقبل هذا الواقع ويعيش خيالاً في ظلها ينفق ما تريد ويأكل ما تشتهي وينفذ لها كل ما تحب؟

وإن لم يقبل ما تريده ستطرده من حياتها غداً أو بعد غد وتقبض يدها عن المال الذي تقدمه له، وربما توعز إلى بعض أتباعها من البلطجية للخلاص منه، وما أيسر هذا وما أسهله، وتطمئن بعد ذلك إلى موت ماضيها بموته، وأن سرها قد دفن معه إلى الأبد.

وتلاعبت في ذهنه خواطر متضاربة وتقاذفته أمواج متلاطمة لا يعرف على أي شاطئ تلقي به.

أيتزوجها ويتغاضى عن المفاهيم التي تعارف عليها الناس ويسمونها الكرامة والشرف في سبيل أن يعيش على بساط من حرير، ومتى كان للشر مدلول واحد يتفق عليه الجميع. فاللص والمرتشي والخائن كل منهم يدعى أنه شريف، لأن للشرف معنى خاصًا يفهمونه دون سواهم. ولو أتيحت لكثير من الشرفاء وسيلة للغواية لسلكوها وهم يتظاهرون بالشرف ويرتدون الثوب الأبيض الناصع وتحته من الخطايا ما تنوء بثقلها الجبال، وهم شرفاء متدينون لأن الحياة التي يعيشونها فرضت عليهم هذا الشرف والتدين. أم تراه يعيش في سراب الشرف كما يتشدق به العاجزون والمحرمون، وهم يلهثون وراءه ويخدعون به أنفسهم.

ولمَ لا يفهم الشرف بمعناه العريض الذي يفهمه كثير من الناس ويتعاملون معه أو يضمرونه في أنفسهم ولا يبدونه أمام غيرهم، حتى يقال عنهم شرفاء، ولا يعرفون في الحقيقة شيئًا من جوهره إلا الحروف الهجائية التي كتب بها. إن الحياة فرصة إذا أتيحت له يجب اقتناصها وإلا هربت من بين يديه إلى الأبد.

وهـا هـي تفـتح لـه الأبـواب ومن الغباء أن يدعها تغلق أمامه، إنه عـاش محرومًا لأنه فقير ومنبوذ. فلمْ يرحم أحد حرمانه ولم يعطف على نبذه.

وكذلك سوسو تشابهت معه في نشأته، وأفلحت في اقتحام الصعب بـأي طـريقة كانـت، ولم يـسألها أحـد عـن ماضـيها أو حاضـرها أو مـستقبلها. فلـمَ لا يقاسمهـا هذا الحاضر ويَعْبُر معها المستقبل، ويدخل بجـوارها الباب المفتوح، سواء أكان وراءه صخور وأوحال تقزز أم شيء غـير ذلك. إنهما سيجعلان من هذه الصخور والأوحال وردًا وعطورًا يـشتهيها الـناس ويلهـثون وراءهـا ما داما يدفعان من أجلها الثمن الذي يعمي أبصارهم، ويصم آذانهم، ويسكت ألسنتهم.

وهـل زاد الناس في حياتهم على مر العصور وتعاقب الزمن إلا أنهم عبيد المال أرقاء الذهب، وأوشكت هذه الفكرة أن تسيطر عليه وتتغلغل في وجدانـه وأقـنع بها نفسه، ولم يترك خاطرًا آخر يزحزحها عن مكانها أو يأتي ببديل غيرها.

وعـزم علـى أن يحـسم أمـره مع سوسو ويتزوجها متغاضيًا عن كل شـيء، إنـه بهذا الزواج يكفر عن سنوات الحرمان الطويلة التي عاشها، ومادامـت الغايـة سـعيدة ممـتعة فلا قيمة للوسيلة التي تؤدي بنا إليها.. حـسنة كانـت أم سـيئة.. نظـيفة أو ملوَثة. هذه سنة الحياة ولا أريد عن غيرها بديلاً.

وقـبل أن يـدخل من باب المنزل الذي يقيم فيه لمح الست نوال وهي تفـتح الـنافذة، بقميـصها الـشفاف الذي يظهر أكثر مما يخفي ولا بد أنها

شـاهدته، وإن تـوارت بـسرعة داخـل الحجـرة. ولا شـك أنها ستطالبه بالإيجـار. فأعـد لهـا المبلغ المطلوب ووضعه في مظروف في جيبه من المال الذي أخذه من سوسو كمقدم للحن الذي سيؤلفه للأغنية الجديدة. وهو لا يـريدها أن تطالـبه أكثر من ذلك، وتتخذ من الإيجار وسيلة للاحتكاك بـه احـتكاكًا لا يعرف نهايته، وماذا تريد منه؟ كما لا يريد أن يعرفها أنه في طـريقه للـزواج من أخرى، لقد استقر على رأي ولن يحيد عنه، وربما يكـون هذا أخر إيجار يدفعه لها قبل أن يترك المنزل ليعيش في شقة سوسو الفاخرة بعد أن يتزوجها.

وتـباطأ قلـيلاً قبل أن يدخل المنزل حتى انتهى من قطعة حلوى كان يأكلـها، وتحـدث مـع عـم سيد بائع الصحف بعد أن أخذ منه ما يريد، وصـافح مـن يعـرفه من جيرانه وهم يتوجهون لأعمالهم، ودخل المنزل وقـبل أن يـصعد الـسلم نظـر إلى أعلـى قلـم يجد أحدًا أو يسمع صوتًا، واطمـأن إلى صـعوده من غير أن تراه الست نوال، وفي آخر النهار سيدق بابهـا ويعطـيها الإيجـار، ولكـنه لم يكـد يصل إلى باب شقته حتى وجد الـست نـوال تطل عليه وهي تقف في الصالة الموصلة بين شقتيهما وعلى فمهـا بـسمة أو دعوة صريحة له، وتطل من عينيها رغبة في التقرب إليه، وتكـاد أن تـناديه ملحـة، وتظاهرت بأنها تضع سلة القمامة بجوار الباب وانحـنت لتحـسن وضعها وتظهر مفاتنها لإغرائه، ونظراتها تمسح شكل أنور من أعلاه إلى أسفله، ووقف أنور يداري اضطرابه.

وقـال لهـا في صـوت مـنخفض: "إنني أعددت لك الإيجار يا ست نوال"، وها هو في المظروف، ومده إليها.

فأجابته بنفس الصوت المتقطع والكلمات المتعثرة التي لا تكاد أن تتماسك، وتحسبها آتية من مكان بعيد عميق: "لا فارق بيننا يا أستاذ أنور. فلك أفضال كثيرة عليّ بخدماتك لا أنساها. وإنما ذكرّتك فقط حتى أعطيك إيصال الإيجار لتحتفظ به، فلا أحد يضمن حياته يا أستاذ أنور، ليكون مستندًا عندك عند الضرورة، فأنا وحيدة وقد يأتي وقت يأخذ العمارة أقارب زوجي الراحل. وأنت تعرف يا أستاذ أنور مقدار حبي وإعزازي لك".

وخطت إلى الأمام خطوة قصيرة، ونظرت إلى أعلى السلم وأسفله فلم تجد أحدًا أو تسمع صوتًا، وأصبحت أمامه مباشرة، وقالت له بصوت يعرف معناه جيدًا: "تعال معي حتى نشرب القهوة سويًّا، وأعطيك إيصال الإيجار".

وقبل أن يجيبها إلى ما طلبت ويحس بالضعف، سمعا صوتًا في مدخل العمارة وشاهدا زوجة حجاج بواب العمارة ترتقي درجات السلم بصوتها العالي الذي ينبئ عن قدومها، وخطواتها الثقيلة التي تحتك بدرجات السلم كأنها تجرّ رجليها جرًا أو تحمل عبئًا ثقيلاً ينوء به كاهلها؛ فهي ثقيلة الوزن بطيئة الخطوات تعمل مع زوجها لتساعده في تربية أبنائها، حيث يعملان بوابين لأكثر من منزل متجاور لأنها منازل صغيرة لا يحتاج كل واحد منها إلى بواب مستقل.

وعلى ناصية الشارع تجلس أمام مجموعة من السلال والأقفاص تبيع فيها جميع أنواع الخضراوات والفواكه التي يقبل عليها سكان الحارة. وتقوم بدور شيخ الحارة، لأنها تعرف جميع سكانها، فتستلم الرسائل

والإعلانات وكل ما يتعلق بالسكان، وهي سمسارة وخاطبة وعالمة بكل صغير وكبيرة تهم مجتمعها الذي تعيش فيه.

وبالقرب منها يجلس حجاج أمام كشك صغير يبيع فيه السجائر والحلوى والمرطبات، وعينه يقظة متنبه لكل من يدخل أو يخرج من الحارة. فإذا شاهد غريبًا قادمًا يتبعه حتى يعرف ماذا يريد وإلى أين يتجه؟ فهو وزوجته ملمان تمامًا بكل أسرار الحارة وماضيها وحاضرها، ولهذا تراجعت الست نوال إلى الخلف حينما أحست بها صاعدة، فلا تريد أن تشاهدها زوجة حجاج في وضع يجعل الناس يلوكون سيرتها ويتحدثون عنها. إنها تعيش بسمعتها الطيبة، وإذا ارتابت فيها فإن مكانتها ستهتز بين سكان الحارة، ودخلت إلى شقتها سريعًا، وأغلقت الباب على أن تتحدث معه بعد ذلك في شأن الإيجار، وفعل أنور مثلها.

فتوارى داخل شقته المتواضعة تاركًا زوجة حجاج تتجه إلى حيث تريد، ومعرضًا عن الست نوال، والهدف الذي تريده، ولولا أن رأيه استقر على هدف محدد لوجد فيها مخرجًا من أزمته التي يعيش فيها والضائقة المالية التي تحاصره.

وفي مقارنة سريعة بين نوال وسوسو رجحت كفة الأخيرة، وارتفعت اسهمها. إن كليهما تريده لهدف يخدم مصلحتها ويحقق أهدافها، ولا تريده مجرد زواج أسوة ببقية الناس. ومن المؤكد أن مصلحته هو تتحقق مع سوسو أكثر من نوال.

وفي داخل الشقة تناول وجبة خفيفة من الطعام، وأمسك بالعود وأخذ يترنم ويردد كلمات الأغنية التي يريد أن يلحنها حتى استقر

اللحن تمامًا في ذهنه، وعلى أطراف أصابعه. وبعد الانتهاء منه والاطمئنان إليه. ألقى بجسده على سريره المتواضع حتى يأخذ قسطًا من الراحة، وفي المساء ينطلق إلى سوسو يقدم لها اللحن ويدربها عليه. ويلقي إليها بالرأي الذي استقر عليه ولا يريد أن يتردد فيه بعد ذلك.

وليس ببعيد أن تكون هذا اليوم هو آخر عهده بشقته الضيقة التي لا ترى ضوء الشمس إلا نادرًا، وبسريره المتهالك الذي يئن به كلما تحرك فوقه كمريض موشك على الموت. واستسلم لنوم عميق.

منافع متبادلة

منافع متبادلة

لم يخيب أنور ظن سوسو فيه ورغبتها في الاقتران به واقتنع بفلسفة ارتضاها لنفسه أو فرضتها عليه مسيرة الحياة التي يعيشها منذ أن استقل بنفسه بعيدًا عن والديه وإخوته وترك زمامه للقدر يقوده إلى حيث يريد .

ولم لا يكون هو الشعاع الوضاء الذي يعبر بسوسو مجاهل الرذيلة ويردها إلى الصواب فيعبران معًا مستنقع الإثم إلى ساحة الطهر والفضيلة .

أليس الدال على الخير كفاعله ، والذي يرى منكرًا فيغيره بيده أو بلسانه أو بقلبه سيكون له أكبر الأثر عند خالقه .

ولا شك أنه يسبح في منكرات ضالة ، فليحاول أن ينقي قلبه من الداخل ، ويغير بيده ولسانه كل ما يلوث سوسو ويجرها إلى هاوية الضياع . إنه سيكون أعظم المجاهدين ، وربما غفرت له هذه الأفعال الزلات الكثيرة التي انغمس فيها طيلة حياته .

وذهب إلى سوسو وجلس في انتظارها ، وأفكار الزواج والرجوع إلى الله تسيطر على مشاعره وأحاسيسه ، وخيل إليه أن روحه ترتفع من مستنقع أسن عفن إلى عالم من الصفاء والطهر وراحة الضمير ونقاء القلب والوجدان .

وأقبلت سوسو من صالة الرقص تتثنى وتتمايل في ثيابها ، وتسير في

خيلاء ودلال وأصوات العابثين والمغازلين مازالت أصداؤها ترنّ في أذنيها وتطاردها حتى باب الحجرة التي تستبدل فيها ملابسها حيث وجدت أنور في انتظارها. فحيته كما اعتادت أن تحييه بطريقتها الخاصة. ورد عليها التحية بشيء من الجد، لم تعهده فيه من قبل، وأسمعها لحن الأغنية الجديدة التي أعد كلماتها بالأمس، وأعجبت بها وبدأت تردد وتستعيد بعض مقاطعها.

وأراد أن يحسم أمره معها حتى لا يتبدل فكره أو تتغير آراؤه في موضوع الزواج منها. وسكتت سوسو فجأة ونظرت إليه متسائلة مستفسرة لأنها أدركت من خبرتها به أن هناك شيئًا يريد أن يقوله ويتحفز للإدلاء به.

فقال لها دون مقدمات طويلة: إن الأيام لا تستقر على حال، ولا نعرف ما سوف يحدث غدًا، وخير البر عاجله. ومادمت راغبة في الزواج مني فأنا أقبل رغبتك في سرور وحب وأبادلك نفس الرغبة. فطريقنا واحد، وسوف نسير فيه إلى النهاية بإذن الله. وأتمنى ألا تعودي بمفردك إلى منزلك أو أرجع أنا وحيدًا إلى شقتي. وسنقضي الليلة معًا ونحن زوجان.

وفوجئت سوسو بما قاله أنور بعد أن ساورتها الظنون كثيرًا في قبوله. ولم تكن أقل رغبة وسرعة في إتمام هذا الزواج الذي تحرص عليه أشد الحرص لاعتبارات كثيرة لا تجدها في غير أنور من عشاقها الكثيرين. وقالت له في دلال وتمنع مصطنعين: ألا تنتظر حتى نعد للأمر عدته وأهيئ نفسي للزواج، وأدعو جميع الناس ونعلنه على الأشهاد؟

أنـــــــور : سنعلنه على الناس جميعًا وننشره في جميع الصحف، فليس فيه ما يدعونا إلى الكتمان . ولكننا نريد أن نعقد قراننا اليوم ثم نحتفل بالزواج في أي يوم تريدين وبالطريقة التي ترضين عنها . لقد أعددت الشهود وسنخرج من هنا إلى منزل المأذون مباشرة .

وضحك وهو يضع يده على كتفها قائلاً : ولك الحق بعد عقد القران أن تقبليني زوجًا في منزلك أو أعود إلى شقتي حتى تقيمي الفرح الذي ترغبين فيه .

ولم تترك سوسو الفرصة التي كانت تنتظرها ، فارتدت أعظم ما عندها من ثياب وأعلنت أمام أتباعها ورجالها أنها ستعقد قرانها اليوم على أنور وأنهما كانا متفقين معًا على هذا الموعد منذ فترة ولكنها لم يعلنا عنه لظروف طارئة .

ووسط زفة أعدت من العاملين في الملهى وبعض الرواد المعجبين بالراقصة خرج موكب فخم يضم الراقصات والمطربات وعازفي الموسيقى إلى منزل المأذون حيث تم عقد القران أمام الجميع .

واستراحت سوسو لتحقيق الهدف الذي أرادته ودبرت وخططت له ، واطمأن أنور إلى القناعة التي هداها إليه تفكيره ، وتمنى من ورائها خيرًا وسلامًا وأمانًا وإيمانًا .

وعاد المشاركون في الحفل الصغير كل إلى منزله انتظارًا للحفل الكبير الذي سيقام بهذه المناسبة الجميلة ، وعلى لسان كل واحد منهم حيرة لا

يستطيع أو يريد أن يعبر عنها، بل ينتظر جوابًا ستفصح عنه الأيام في المستقبل القريب أو البعيد.

وعاش أنور وسوسو حياة زوجية تخللتها أحداث، واعتراها ما يعتري كل حياة زوجية من رضى وخصام وقرب وبعد واتفاق واختلاف. وينجب منها ابنًا كان من الأسباب التي قربت بينهما وربطتهما برباط ازداد ثقة ووثوقًا بمرور الأيام.

وإن كان السؤال الحائر ظل موجودًا: هل نجح أنور في تحقيق الهدف الذي أراده من الزواج؟ وهل أدركت سوسو الأمل الذي سعت إليه طويلاً؟ الله أعلم.

وعاش أنور مع سوسو حياة رضيها هو وقبلتها هي. دبرا فيها أمريهما كما يريدان، ولم يشاهد المقربون منهما اختلافًا يطفو على السطح، وكلاهما يؤدي عمله المتفق عليه فلم تتوان سوسو عن الرقص والغناء بطريقتها المعهودة، وأنور يقف من ورائها بالتأليف أحيانًا وبتلحين أغانيها في كل الأحيان، والنهر يتدفق دون عائق يعوقه.

وتلميذات سوسو وحراسها وأتباعها وحُماتها المدافعون عنها لم يتغير منهم أحد، بل أضيفت إليهم عناصر جديدة ولا سيما في تلميذاتها فأمدتهم بعناصر جديدة أكثر جمالاً وأنضر شبابًا وأكثر إثارة.

ومضى عام على زواجهما لم تتوقف فيه سوسو عن العمل، حتى ظهرت عليها أعراض الحمل. فركنت إلى الراحة مؤقتًا تاركة لتلميذاتها القيام بدورها الذي رسمته لهن. فهي حريصة على أن تنجب ابنا أو ابنة يشبع فيها غريزة الأمومة، بعد أن تحقق لها الاستقرار المادي واطمأنت

إلـيه . ولم يـتخل أنور عن شقته القديمة عند الست نوال فهو يزورها بين وقت وآخر ويبيت فيها أحيانًا مدعيًا لسوسو أنه عند أبويه ومخادعًا لنوال بـأن أعمالـه الكثيرة خارج المدينة تضطره للسفر عدة أيام خلال الأسبوع أو عـدة أسابيع خلال الشهر ، فعمله الآن لا يقتصر على القاهرة وحدها بل بعيدًا عنها ، ولم يفهم سر إبقائه على هذه الشقة أو يناقش عقله فيه .

قـد يكون بحاجة إلى أن يختلي بنفسه بعيدًا عن سوسو وأضواء الليل الـبراقة الـتي تحتويه دائمًا ، فكثيرًا ما يحتاج الإنسان إلى ظلمة هادئة يسبح فيها بفكره بعيدًا عن النور الساطع وما يحدثه من توتر في أعصابه وقلق في داخله . أو يهرب إلى مكان فقط بسيط متجنبًا نعيم القصور وترفها . على أنـه لم يـسترح في وجـوده بالـشقة من مطاردة الست نوال التي لم تعرف شيئًا عن زواجه .

واسـتغل كل ذكائه في التهرب منها والبعد عن طريقها متعتمدًا على جانـب ضـئيل من الود يربط بينهما . ومقدارًا كبيرًا من الأمل تتعلق هي بحباله .

وأنجبت سوسـو ابـنًا جميلاً قبل نهاية العام فرحت به فرحة غامة لا تعادلهـا فـرحة أخـرى . وبادلهـا أنـور فرحتها عن إيمان وقناعة أو قبول وتـسليم ، وعـوض جـزءًا مـن جحـوده لـوالديه وبعـده وجفائـه لهما ، وأفاض عليهما من ثرائه وأغدق الكثير حتى يقيهما شر الحاجة ، من غير أن يـشرح لهمـا مـصدر مالـه أو قصة زواجه من سوسو ، وعاشا يجهلان سـيرة حـياته ويكتفـيان بهـذا الـتطور الحـسن الذي قربة منهما فسعدا به وشاركهما السعادة بقية إخوته .

وازدادت صلة أنور الاجتماعية نتيجة لتعامله مع أوساط مختلفة من الناس رواد الملهى وزواره، وعرف الكثير من أصحاب المال والمراكز وذوي النفوذ الذين يستمتعون بسهراتهم مع قطط الليل وحسانه في سرية وخفاء دون أن يشعر بهم أحد .

وعرف من خفايا الناس ونفاقهم ما لم يكن يعرفه من قبل، وتعلم كيف يعد الأماكن الخاصة لأصحاب الشأن والجاه الذين يدارون مساوئهم عن الناس ويظهرون غير ما يبطنون ويخلعون الأقنعة المزيفة التي يتوارون بها وتغلف حياتهم . فهم أمام الجميع أطهار ملائكة، وعلى موائد الملاهي والرقص البعيدة عن العيون شياطين ومردة .

وأفادته معرفة هؤلاء الزوار ويسرت له الكثير من أموره وشقت تحت قدميه طرقًا كانت متحجرة ملتوية، وفتحت أمامه وأمام سوسو أبوابًا لم يكن يحلم في يوم من الأيام أن تفتح أمامه .

واشتاق إلى شقة نوال بعد غياب طويل عنها فذهب إليها في وقت متأخر بعد اطمئنانه إلى نوم الجميع، فأكثر سكان الحارة الشعبية لا يتأخرون في سهرهم إلا إذا كانت هناك مناسبة ما تستدعى مشاركة الجيران فيها .

وجلس يلحن أغنية جديدة لم يؤلف كلماتها هذه المرة لأنه صار مؤلفًا وملحنًا ومطربًا أيضًا، وإنما أعطاها له سيد شطه، وراح يداعب أوتار العود ويردد كلمات الأغنية، ووجد سهولة في وضع لحن مناسب لها يتفق وكلماتها الهزيلة وجمهورها الرديء، وغدًا يسلم اللحن لسوسو لتحيي به ليلة من لياليها، وترضي جمهورها الذي يعشق هذا

اللون من الفن الضعيف، وبعد أن انتهى منه أسلم نفسه لنوم عميق حتى أشرق الصباح فارتدى ملابسه واستعد للخروج قبل أن تشعر به الست نوال، وفجأة سمع دقات متتابعة. واتجه نحو الباب وهو يظن أن الست نوال أحست بقدومه، ولكنه وجد مندوب التجنيد يسلمه طلبًا باستدعائه للجيش ليقدم نفسه للوحدة التابع لها في موعد أقصاه صباح الغد، ووقع على الطلب بالعلم، وعاد إلى الشقة فأخذ النوتة الموسيقية وغادرها بعد انصراف مندوب التجنيد.

وسيقضي ليلته في شقة سوسو، وينطلق في الصباح إلى كتيبته كما طلب منه. ولا شك أن استدعاءه لن يزيد عن أسبوعين أو ثلاثة كما حدث له من قبل. ثم يرجع بعد ذلك إلى حياته الجديدة التي يعيش حاضرها بكل ألوانه ناسيًا ماضيه، متجاهلاً مستقبله متغافلاً عنه. ووصل الملهى فوجد سوسو في حجرتها وسلمها اللحن ودربها عليه حتى أجادته وعرفت المقاطع التي تنتهي عندها وتلهب بها غرائز المترددين والهائمين في رقصها مرة وسماع العاشقين لغنائها الممقوت مرة أخرى.

وأخبرها باستدعائه للجيش فبان عليها شيء من القلق ولكنها تداركته قائلة: " إنك لن تمكث أكثر من يومين أو ثلاثة ولن يدعك أصدقاؤنا من الضباط ذوي الرتب العالية تستمر عندهم أكثر من يومين أو ثلاثة ثم تعود إليّ وإلى ابنك الذي ينتظرك لتستمتع بضحكته الجميلة العذبة " .

مرت هذه الأحداث أمام أنور كبرق خاطف ولكنه تذكر كل كبيرة

وصغيرة فيها بأدق تفاصيلها، والآن لم تستطيع سوسو أن ترده كما قالت ووعدت. وهو لن يعود بعد أسبوعين أو ثلاثة كما ظن أو توقع، بل غالبًا لن يعود مرة أخرى، سيدفن هنا وتتوارى معه أسرار سوسو وماضيها ولن يعرف أحد شيئًا عنها إلا ما تقوله هي عن نفسها.

وقد تحزن لموته فترة من الزمن ثم تنساه تمامًا، فغيابه عنها يعني ضياع صفحة سوداء من حياتها، وستجد ألف عوض عنه ممن يرتمون تحت أقدامها ويتمنون أن يسيروا خلفها، وستنظره أيضًا الست نوال لأنها تؤمل في الزواج منه حتى يكون درعًا يحميها من المتطفلين والطامعين.

سيبحثان عنه فترة من الزمن وربما يسألان عن مصيره حتى يقال لهما إنه في عداد المفقودين، فينسيان ويضيع من ذاكرتهما إلى الأبد ويصبح ذكرى تتلاشى بمرور الأيام. قلب واحد أو قلبان لن ينتزع منهما أبدا مهما تباعد الزمن، قلب أمه وقلب أبيه اللذين لم يحفظ لهما في حياته تقديرًا عاليًا أو حبًا أو تعاطفًا حتى بعد أن أصبح المال موجودًا بين يديه وعلم بضعف أمه وشيخوخة أبيه وعجزهما عن ممارسة العمل، وعاش حياته رهين الصالات والمراقص لم ينقذه منها إلا فترة تجنيده في قوات ك ١٨٣ صاعقة، ولم يجد أثناءها من يزوره ويسأل عنه غير أبيه وأمه. حقًا لقد اقترب منهما في أيامه الأخيرة محاولاً أن يعوض الجحود الذي عاملهما به في السنوات الماضية ويكفر عما فعله، وما أكثر ما يقسو الأبناء ويجحدون، وما أعظم ما ينسى الأباء ويحبون!!

خندق (ملجأ) تحت الأرض

خندق (ملجأ) تحت الأرض

إنـه الآن في خـندق تحت الأرض بعـد أن حفـره منذ يومين أو ثلاثة ينتظر الموت في كل لحظة، وقد يكون هذا الخندق قبرًا له ولزملائه .

إن عـدد أفراد السرية تقلص من خمسين مقاتلاً إلى ثلاثين، واستشهد الآخـرون وأشـلاؤهم مبعثـرة هنا وهناك تشاهد بقاياها ملقاة على رمال سيناء أو في مخلب طائر أو بين أنياب وحش .

وتذكـر معركة الأمس الشرسة حيث قاتل هو وزملاؤه قتال الأبطال ودمـر بمفـرده أكثـر مـن ثـلاث دبابـات إسـرائيلية وأبـاد طـاقمهم، الإسـرائيليون ماتـوا كمـا اصـطاد عـددًا مـن جنود العدو حينما حاولوا اقـتحام مـوقعهم وأرداهـم قتلـى، وجعـل الـباقين يهـربون كـالكلاب الـضالة، وتمكـن العـدو مـن رصد موقعهم وهذا موطن الخطر، فما لم تـأتهم نجـدة مـن قـيادتهم فـلا شـك أنهـم هالكون، وكيف تأتيهم هذه الـنجدة وجهـاز الإرسال الذي معهم تعطل بعد إصابته بشظية طائشة مما يجعل القيادة لا تستطيع تحديد مكانهم على وجه الدقة؟

إنـه أخذ بثأره قبل أن يموت، وسيحسب شهيدًا عند الله، فهو يدافع عـن وطـنه وأرضـه وشرفه، وهو يسمع أن مصير الشهداء الجنة وحسن الثواب في الآخرة، وأن الشهادة الصادقة تكفر ما قبلها من ذنوب وآثام . فهل يقبل الله شهادته ويغفر له ما تقدم من ذنبه؟

إنـه واثـق بـأن هذه الأيام الثلاثة رغم قصرها قربته من الله وغسلت روحه وطهرت نفسه وأنسته الدنيا بكل ما فيها من بريق خادع، ولم يعد يـرى أمامـه سـوى ربـه يـناديه ويناجـيه. لقـد نسيه في الرخاء وذكره في الشدة، وهذه صفة المذنب الآثم، ولكن رحمه الله كانت قريبة منه فملأت قلبه بالسكون وعقله بالرضى والتسليم والشجاعة.

فقاتـل في بـسالة، وكان يسمع هاتفًا يناديه من أعماقه: طهر نفسك مـن خطايـاك واغسلها من آثامك ونقها من ذنوبك. فلن تجد بعد اليوم وسـيلة للطهارة. تدارك نفسك أيها الضائع في خضم الضلال قبل فوات الأوان. وكـان هـذا الـصوت يملأ من حوله المكان ويخيل إليه أنه يحيط به من كل جانب، وأي طهارة أعظم من الشهادة في سبيل الله والوطن.

واعـتدل أنـور في جلسته وهو ردد بصوت مرتفع تجاوز حدود عقله الـباطن: نعـم.. سـيغفر الله لي ويطهرني من ذنوبي، فهو غفور رحيم ولـن يغلـق بـاب توبته أمام أمثالي أبدًا، وسمعه الجندي حامد الذي ينام بجـواره. فقـال لـه: ماذا تقول؟ يبدو أن الظمأ والجوع أثرا على تفكيرك فجعلاك تردد كلامً لا تفهم معناه.

أنـــــــور : كـلا يا زميلي إنه حديث بيني وبين نفس أتقرب به إلى الله. ألـسنا الآن بـين يديـه وأقـرب إلـيه من أي وقت مـضى؟ ولكـن مـا الـذي أيقظك من نومك وأنا أعلم أنـك مـتعب مرهق من معركة الأمس التي أبليت فيها بلاء عظيمًا؟

عـبد اللطيف : الـذي أيقظـني أولاً صـوتك العالـي وأنـت تحـدث

نفسك. وثانيًا: الظمأ الشديد الذي يلهب أحشائي فجعلني أحلم بقطعة من البطيخ المثلج من ثلاجتي في المنزل، وأتذكر عروستي التي تزوجت بها قبل استدعائي بيومين.

وسكت عبد اللطيف قليلاً وهو يخفض رأسه إلى الأرض ثم قال: ما أظن يا أنور أنني سأعود إلى عروستي مرة أخرى. لقد كانت فرحة عمري أيام ثلاثة، وأعتقد أنها انتهت إلى الأبد.

أنور : لا تيأس يا عبد اللطيف، فرحمة الله وفرجه قريبان، ولا ندري ماذا سيحدث بعد ساعة.. هل نموت أم نؤسر أو يصلح جهاز الإرسال فتأتينا المعونة وتمدنا بالرجال والعتاد والماء والطعام؟

حسن : دعك من هذه الآمال التي نخدع بها أنفسنا. فإذا لم نقتل أو نؤسر فنموت من الجوع والظمأ.

عبد اللطيف إنني أقبل الموت بأي صورة من الصور ولكنني لا أستسلم لليهود أبدًا سيلحقني ويلحق أسرتي العار إلى يوم القيامة.

أنور : لا تحزن يا زميلي، ويكفيك من عمرك هذه الأيام الثلاثة الجميلة التي قضيتها مع عروسك وعوضتك بها عن حرمانك الطويل بين فرح الأهل واطمئنانك ورضاك عما تفعل. أما أنا فعشت حياتي تائهًا في بحر متلاطم وكل مرفأ أصل إليه أجده مليئًا بالصخور

والأوحال فأهرب إلى غيره فيتلقفني الهوان والضياع.
حتى جيء بي إلى هذه التبة فأصبحت ملاذي وربما مرفأي الأخير. هل تعلم يا عبد اللطيف أنني حاولت الهروب من حياتي الضائقة إلى وسط مقبول لا يطاردني فيه الماضي أو الحاضر، واجتهدت في التلحين حتى وصلت إلى درجة لا بأس بها. وأعددت مجموعة من الألحان الوطنية التي لا تقل جودة عن غيرها لملحنين آخرين وتقدمت بها أكثر من مرة للإذاعة وفي كل مرة تقابل بالرفض دون إبداء الأسباب، وإن كان السبب الوحيد الذي عرفته هو عدم وجود وساطة.
بعد أن توفى صديقي الملحن الكبير. وبقيت في القاع أبحث عن الفتات الذي أقتات منه وأجري وراء سراب خادع لا أعرف له نهاية.

ويقطع عليهما الحديث هبوط سامح من أعلا التبة بعد انتهاء فترة ورديته ليستريح قليلاً، ويسأل عبد اللطيف عن الأخبار فيجيبه في عدم مبالاة: لا جديد، فمازال جهاز اللاسلكي معطلاً.

ومرت طائرة مصرية في سرعة فائقة استبشرنا بها خيرًا وأشرنا إليها ولكن يبدو أنها لم تشاهدنا واختفت في لحظات بعد مطاردة إحدى طائرات العدو لها، والمقدم إبراهيم الرفاعي صعد إلى أعلى ومعه المقاتل سيد زكريا ويبدو أنهما يعدان للقاء الفاصل الذي يتوقعانه قبل نهاية اليوم.

مـــصطفى : ولكـن الـساحة هادئة ولا نسمع أزيز الطائرات أو هدير المدرعات والدبابات .

ســـــامح : إنـه الهـدوء الـذي يـسبق العاصـفة وهذه هي مخططات العـدو التي عرفناها عنه . . صمت تام ثم هجوم غادر . ولكن أخبراني عن أي شيء كنتما تتكلمان؟

مـــصطفى : كـنا نُخـرج مـا بقـى لدينا من كلام نسرّي به عن أنفسنا فغالبا بعد ساعات لن نستطيع قوله لأننا سنصمت عنه إلى الأبد . اجلس وحدثنا عن ذكرياتك وارو لنا أخبارك وقـصة حـبك مـع وفـاء الـتي عرفتُ بدايتها حينما كنا نـتدرب معًـا في كتيـبة الـصاعقة ١٨٣ وافترقـنا قبل أن أعـرف نهايـتها . اجلـس وحدثنا فبعد قليل لن تجد من تحدثه .

وبـدت علـى سامح أمارات الألم والغيظ ، ورطب شفتيه بقليل من الماء واتجه إليهما قائلاً : نعم إنها زميلتي وزوجتي التي تركتها وبين يديها طفلان صغيران .

مـــصطفى : أعلـم أنهـا كانـت زميلتك في كلية الآداب وكنتما على وشـك الـزواج بعد التخرج وإن سبقتك هي في سنوات الدراسـة بعـد تعثـرك حيث اعترض أهلوكما على هذا الزواج .

ســـــامح : كـل هـذا صـحيح ، ولا أدعـي أمـامكم شيئًا بعيدًا عن

الواقع . فأسرتي فقيرة متواضعة عدد أفرادها كثيرون ، وأسرة وفاء أشد فقرًا مني ، وكنت أقتسم مصروفي معها ومددت يدي إلى بعض مصروف إخوتي ، ووجدت أن هذا لا يفي بمتطلباتها ، فعملت بعد الظهر جرسونًا في إحدى الكافتيريات البعيدة حتى لا يراني إنسان أعرفه أو يعرفني . وقدمت لها كل ما أجمعه وأحصل عليه ، ولم أؤثر به أبي وأمي وإخوتي المحتاجين ، واشترت منه الملابس وأدوات الزينة والكتب وكفيتها مشقة المحاضرات فكتبتها لها مع محاضراتي حتى سبقتني فكلفت أحد زملائي بمساعدتها . وهي لم تبخل علي بجمالها المثير وأنوثتها الطاغية . وحرصت هي على دراستها وما تأخذه مني وشغلتُ أنا بتوفير مطالبها على حساب دراستي . ووجدت فرصة للعمل في إحدى المدارس الابتدائية الخاصة ازداد بها دخلي كي أسعدها وأرضيها ، وبقدر ما ارتفعت هي انحدرت أنا فلم أستطع أن أجمع بين الدراسة والعمل في الصباح والمساء . وغضبت مني أسرتي بعد أن فصلتني الكلية لتكرار رسوبي . ولم أضمر لها سوءًا أو أسألها عن شيء لا تريده لأن حبي غفرَ لها كل ذنب وتجاوز عن كل هفوة . ولم أنكر على نفسي سذاجتها حينما تغاضيت عن كثير مما أشاهده ، وأعماني جمالها عن النظر فيما وراء هذا الجمال لم أسألها عن تهربها مني

أحيانًا وتجاهل أسرتها للملابس الفاخرة التي ترتديها، وبعض الحلي التي تزين به جيدها ويديها وهو ما لم أستطع إحضاره لها، فمن أي طريق وصل إليها؟ وإن علمت بعد ذلك أنه طريق نظيف لا غبار فيه، وفي الوقت الذي حصلت هي فيه على الليسانس بتقدير جيد. استدعيت للتجنيد لأن رسوبي صار مبررًا لتجنيدي بعد أن أبلغت عني الكلية ولم يعد هناك داع لتأجيله، وتواعدنا على لقاء الفراق فربما يطول بعدي عنها لعدة شهور، واستأجرت زورقًا صغيرًا سبحنا به في المساء على صفحة النيل، وتركت لعواطفي العنان وشاركتني أحاسيسي ومشاعري، وسار بنا الزورق على غير هدى ونحن عنه مشغولون بحبنا لا يشاركنا سوى سحاب خفيف يعبر صفحة السماء، ولا ترانا غير أشعة النجوم السابحة في الفضاء البعيد، ولا نسمع إلا أمواج النيل الهادئة تدق على جوانب الزورق دقات خفيفة تذكرنا بالوقت الطويل الذي قضيناه. وانتبهنا من نشوتنا على صوت سفينة نيلية كادت تصطدم بنا فابتعدنا عنها وعدنا إلى الشاطئ بعد أن أقسمت لي أنها ستظل مخلصة مهما تباعدت الأيام ولن ترضى بغيري بديلاً. وقضيت أربعة أشهر في تدريب مستمر قاس كما تعلمون، لم أغادر فيه معسكر التدريب ولم أمنح إجازة، وفي نهاية الأشهر الأربعة تكرموا علينا بالراحة

والاستجمام لمدة يومين فكدت أطير من الفرح، وأسرعت إلى منزلها فقابلني والدها ولم يخبرني عن مكانها وفي الشارع التقيت بأخيها الصغير وأخبرني أنها تعمل في إحدى الشركات الكبرى ووصفها لي وصفًا دقيقًا ودلني على مكانها. وذهبت إليها فورًا وأشواقي وحبي يسبقان خطواتي، ووصلت حجرتها بعد مشقة من كثرة الموظفين والسعاة. وحيتني برأسها وأشارت إليّ بالجلوس لأنها لا تريد أن تقطع حديث الهاتف الذي تجريه مع بعض العملاء. وتأملتها في جلوسي، وأدركت أن شيئًا كثيرًا تغير فيها أو هو تغير فعلاً من قبل، وإن لم يطفو على السطح أو أتنبه له إلا الآن. حديثها وحركاتها وجلستها شيء آخر لم يكن لي به عهد من قبل. وتبينت كذب خيالي بعد ذلك، واستدعاها المدير فهبت نشيطة وسوت شعرها ونظرت في مرآة صغيرة أمامها، وبعد أن اطمأنت على نفسها تمامًا ذهبت إليه وغابت لديه فترة طويلة ظننتها دهرًا وخرجت سعيدة ضاحكة تمسك في يدها بعض الأوراق وكنت قد انتهيت من كوب الليمون الذي طلبته لي، وبدأت أحدثها فأشارت لي أن المكتب مليء بالموظفين ولا تريد أن يسمع أحد حديثنا. وعرضت عليها أن أنتظرها حتى انتهاء فترة عملها فاعتذرت بأن لديها عملاً يضطرها للبقاء فترة طويلة ولا تستطيع تحديد

وقت انتهائه. ورجوتها أن تنتظرني على شاطئ النيل حيث الزورق الصغير في انتظارنا فردت قائلة: إذا سمحت الظروف، اذهب أنت وسوف أتصل بك.
وصافحتها وانصرفت ولكنني لم أبتعد كثيرًا عن باب العمارة التي بها الشركة، وظللت واقفًا بالقرب منها حتى الساعة الثانية والنصف فخرجت متوجهة إلى منزلها واقتربت منها مناديًا عليها، وسارت معي في طريقي وجلسنا حيث كنا نجلس من قبل نتجاذب أطراف الحديث ونرسم خطوطًا مضيئة لمستقبل مشرق.
وقالت لي في صوت وديع: إن طبيعة العمل تستدعى شيئًا من التكلف الذي لابد منه، يجب أن أجاري الوسط الذي أتعامل معه دون خروج عن القيم والأخلاق، فأكون وسطًا في سيرتي لا أظهر الجفاف الذي يبعد الناس عني، أو التهاون الذي يطمعهم في سلوكي. وبهذه الطريقة ثبتّ أقدامي في عملي حتى أتمكن من مساعدتك بعد الزواج وأجازيك خيرًا عما قدمت لي. فلولاك ما كنت حققت هذا النجاح الذي وصلت إليه. ولا تغضب إذا رابك شيء من والدي أو والدتي فهذه طبيعتهما وهما يريدان لي أكثر مما أريده لنفسي. وضحكت قائلة: يريدان شيئًا ولكن قلبي يريد شيئًا آخر أنت تعرفه جيدًا. ولم تمض شهور قليلة حتى تم زفافي وعشت مع عروسي أجمل أيام حياتي. فقدمتُ

نـي الحـب والحنان والمؤازرة في عملي، ودفعتني للأمام حتـى أعـوض مـا فـاتني مـن قـبل، ورزقنا الله بطفلين (تـوأم) سـعدنا بهمـا كثيرًا ووثقا الرباط الذي يجمعنا، حتـى اسـتدعيت للجـيش مرة أخرى، وها أنا معكم يا زملائـي، ومـصيري رهـن بمصيركم الذي لا يعلمه إلا الله. فهـل تـرانا سـنعود مـرة أخـرى؟ وهـل سأشـاهد زوجـتي وطفلـي وأنعم بلقائهم، أم ستكون هذه البقعة مـن الأرض هي آخر عهدنا بالحياة؟ لقد كتبت لزوجتي رسـالتي أبـثها شـوقي وحـبي وأصـف لها ما نحن فيه. ولكـن أي جناح طائرة سيحمل إليها هذه الرسالة؟ إنها ستظل في جيبي حتى تكون نهايتها معي ونهايتي معها.

خالد (أحد الجنود) : لا تـيأس يـا زميلـي إن بعـد العسر يسرًا، وغدًا يقتحم جنودنا هذا المحور الشمالي من سيناء ونتخلص من هذا الحـصار كمـا كـنا معًا في سلاح المشاة قبل أن يقع علينا الاختـبار للانـضمام إلى فـرقة الـصاعقة. إنـك تفـضي بأسـرارك إلى صـديقك أنـور، أمـا أنـا فـيبدو أنـك لم تتخذني صديقًا بعد.

ســـــامح : كلا يا زميلى فحياتنا في سلاح المشاة عمل متواصل. (وكأنه يريد أن يغير مجرى الحديث)

أتذكـر الـتدريب الـذي قمـنا بـه على القناة الصناعية التي تشبه قناة السويس بصورة مصغرة وعبرناها أكثر من مرة. لقد أقيمت عليها مواقع

دفاعية مماثلة تقريبًا لمواقع خط بارليف على الضفة الشرقية وبالحجم الطبيعي. ثم جرى تدريبنا كوحدات اقتحام على العبور والاستيلاء على المواقع الدفاعية الهيكلية عشرات المرات، حتى الساتر الترابي تعاملنا معه حتى عرفنا كيف نفتح الثغرات العديدة فيه لعبور الدبابات.

الجندي عادل : لم يستطع الرقيب خالد إصلاح جهاز اللاسلكي حتى الآن، وآخر رسالة وصلته واستقبلها قبل أن تصيبه الشظية وتسكته، أن قواتنا نجحت في عبور القناة على طول امتدادها وأفلحت في فتح عدة ثغرات من خط بارليف تقدمت منها الدبابات إلى داخل سيناء واتخذت مواقعها، وتحطمت نظرية إسرائيل التي تدعى أن اقتحام هذا الخط مستحيل ومقدر له الفشل. ولكنني مازلت أتساءل: لماذا حددت الساعة الثانية ظهرًا موعدًا لبدء المعركة مع أنني أعلم من دراستي العسكرية أن الهجوم يكون عادة عند الفجر؟

سامح : هذا يا زميلي تخطيط عسكري وسياسي متقن، وقد حدد هذا التوقيت لاعتبارات أهمها: أن يكون تيار الماء في القناة مناسبًا للعبور، وأن تكون توقعات الحرب بعيدة عن تفكير العدو؛ فنحن في شهر رمضان، وأعلن أن بعض القادة والضباط ذهبوا لأداء العمرة. والعدو غير مستعد نتيجة لاحتفاله بعيد من أعياده، وأيضًا حتى لا يعطوا لطيران العدو فرصة نهار كامل يستغلون فيه ضوء النهار للقيام بعملياتهم

المضادة، وأن تكون الليلة مقمرة تضيء لجنودنا مسالك العبور والتوغل في دروب خط بارليف الضيقة المظلمة، ويضاف إلى كل ذلك إيهام العدو بعدم وجود قوات كبيرة لنا على الضفة الغربية للقناة؛ لأن الكتيبة كانت تذهب بكاملها مساءً وفي الصباح يعود جزء قليل منها أمام الجميع، ثم يرجع إلى موقعه في المساء، حتى يعلم العدو أن المسألة ليست حشدًا عسكريًا للحرب بقدر ما هو إحلال وتجديد عاديين، ولا تنس المؤازرة السياسية الكاملة التي وقفت خلف هذا الهجوم من روسيا وغيرها من الدول المؤيدة لنا.

عادل : كفى يا زميلي كأنك أحد المخططين لهذه المعركة وتعرف أسرارها وخلفياتها، ويبدو أنني نسيت ثقافتك وقراءاتك في الأدب العالمي المترجم. فأنت على ما أعلم درست جزءًا غير قليل في كلية الآداب ودرايتك أكثر منا.

سامح : ليتني ما درست في كلية الآداب ولا عرفت قاعاتها. ففوق مدرجاتها عرفت بدايتي الحلوة وفوقها أيضًا كانت نهايتي التعيسة.

ودوى بوق خفيض الصوت سمعه بقية الموجودين في أسفل الملجأ والمحيطين به.

صاح عادل : إنه بوق المقدم إبراهيم الرفاعي يدعونا للاجتماع به فورًا.

وأسرع الجميع للقاء المقدم إبراهيم الرفاعي قائد السرية وسماع توجيهاته. والتف من حوله الجنود وظل بعض الحراس محيطين بجوانب التبة.

المقدم إبراهيم : أنتم تعلمون أننا مجموعة فدائية وهبت نفسها للموت ليعيش الوطن. وحينما أنزلتنا الطائرة الهليوكوبتر في هذا الموقع خلف مؤخرة العدو وبالقرب من طرق مواصلاته. أنزلت مجموعات أخرى في أماكن متعددة قريبة من المطارات ومراكز قيادتهم. والهدف الأساسي لمهمتنا هو إعاقة تقدم العدو وإثارة الفوضى والاضطراب في مؤخرته لندعم بذلك وبصورة غير مباشرة الهجوم الرئيسي على القناة. وأعتقد أننا نجحنا إلى حد كبير في أداء مهمتنا على الوجه الأكمل، واستشهد من فصيلتنا أكثر أعدادها بعد أن رصد العدو موقعنا ولكن بعد أن حطمنا القوة الضاربة للواء المدرع الإسرائيلي ١٩٠، وها هي دباباته ومجنزراته تشاهدونها محطمة أمامكم، وربما حالفنا سوء الحظ لتتعطل أجهزة الاتصال التي معنا حتى نتصل بالقيادة لتعطينا أوامرها، والعدو لن يتركنا هنا، فمنذ لحظات ومن خلال منظاري المكبر

شاهدت رتلاً من الدبابات والمجنزرات في طريقه إلينا ولا أستبعد مهاجمة الطيران لموقعنا . ونحن جميعًا وهبنا أنفسنا للموت فداء للوطن ودفاعًا عنه ، ولا أعتقد أنكم تقصرون أو تبخلون على وطنكم بهذا الشرف .

وصاح الجميع : نموت وتحيا مصر . وواصل المقدم حديثه في حماس : سنخرج ما بقى لدينا من أسلحة ونستعملها حتى آخر طلقة في أيدينا ولن نستسلم للعدو أبدًا .

ووزع المقدم إبراهيم جنوده على الموقع وحدد لكل فرد مهمته القتالية والسلاح الذي يجب أن يستعمله . وسيكون هو في الطليعة مع المقاتل سيد زكريا لاصطياد جنود المشاة الذين يقتربون منهم .

وأعد مجموعة ثانية لضرب الدبابات ، وأخرى لتحطيم السيارات والمدرعات ، ورابعة لرصد الطائرات ومحاولات إسقاطها أو إبعادها عن الموقع .

ثم هتف مع جنوده ـ نموت وتحيا مصر ـ وأوصاهم بالقتال حتى الموت . ولم يكن المقدم إبراهيم ينتهي من كلامه ويوزع جنوده في مواقعهم الجديدة حتى سمع هدير الدبابات يملأ هدوء الجبل ، وارتفع صوت من ميكرفون إحدى السيارات ينادي : " سلموا أنفسكم فلن تستطيعوا النجاة والمكان محاصر من كل الجهات " . وثار حماس الجندي عبد اللطيف فنزل من موقعه وعاجلهم بطلقة مدفع دمرت سيارتهم تمامًا . وقبل أن يعود إلى موقعه شاهده زميله عادل بعد إصابته من العدو يترنح ويسقط على الأرض بجوار مدفعه وتسكت حركته ، وأراد عادل

أن يـذهب إليه فأمسكه مصطفى وهو يردد: "لقد انتهى.. ماذا تريد أن تفعل له؟ مات بطلاً شهيداً".

عـــــــادل : مـات كمـا تمنـى أن يمـوت ورفض الاستسلام والأسر. رحمـه الله. كانـت أحلامـه صـغيرة بـسيطة اسـتوحاها وتعلمهـا مـن بيئته الريفية الطيبة، وفي قلبه حب أخضر ولـيد لعروسـه الجديدة الحامل التي تعرف بها عن طريق أحـد أصـدقائه. مـات وعلـى لـسانه سـؤال لم يجـد له جـوابًا: هل سيعود لعروسه؟ وجاءه الجواب سريعًا من طلقـات غـادرة لعـدو جـبان أجهـضت سـؤاله وقضت عليه.. لماذا يقاتل الناس بعضهم بعضًا، ونشوه الجمال الـذي وهـبه لنا الخالق، ونحرق الورود والزروع لنغرس مكانهمـا الشوك والحنظل؟ لماذا تستبد أنانية فرد وجشعه وخـياله المـريض وتمسكه بأوهام وأساطير صنعها بنفسه ليدمر الخير والجمال والحياة؟ لعن الله إسرائيل التي ألجأنا عـنادها وغـرورها وعدوانها إلى هذه الحرب حتى نسترد بها حقًا ضائعًا وأرضًا مسلوبة وكرامة مهدرة.

وفيما هو مسترسل في مناجاته انهالت الطلقات من كل جانب. ولم تستطع القوة المدافعة الصغيرة أن تصد هجوم سرية كاملة. فأبلت أحسن البلاء حتى نفدت ذخيرتها وتساقط أفرادها واحدًا بعد الآخر ولم يبق في الموقـع إلا القلـيل. واقـترح سيد زكريا على المقدم إبراهيم ومعه الجندي إيهـاب أن يغـادرا الموقـع بـسرعة إلى مكـان آخـر ربما يكون أكثر أمنًا أو يمكـنهما الاتـصال بأحد، وسيغطيهما بنيران مدفعه حتى يبتعدا عن هذا

المكـان الـذي صـار مكشوفًا للعدو . وأعطاهما زمزمية الماء التي معه ثم وقف في مكان مرتفع وشاهدهما ينطلقان ولم يغيبا كثيرًا عن ناظريه حتى شـاهدتهما مجموعة إسرائيلية قادمة فأمطرتهما بوابل من نيرانها . وسقط المقدم إبراهيم وبجواره إيهاب وفي أيديهم زمزميه الماء كل منهما يحاول أن يقـدمها للآخـر ليـشرب مـنها قبل أن يموت ولكنها وقعت بينهما وسال ماؤهـا على الرمال . وبقى الراديو الصغير الترانستور ملقى على الأرض بجـوار إيهـاب . إنهمـا شـربا من ماء الجنة بعد أن عز عليهما ماء الحياة، واستشهدا صائمين في شهر رمضان المبارك .

وتقـدم سـيد في حـذر فـشاهد المجمـوعة الإسرائيلية التي يزيد عدد أفـرادها عـن العـشرة يـتقدمون نحـو الشهيدين لأخذ ما معهما . لظنهما أنهمـا آخـر المجموعة ولا يوجد سواهما، وبدءا يفحصان الجثتين لسرقة مـا معهمـا . واقـترب مـنهم سـيد وهـم مطمئـنون غافلـون، وأحكـم التـصويب ثـم أطلـق مدفعه الرشاش دون توقف حتى حصدهم جميعًا، وأخذتـه النـشوة بعـد قـتلهم والـثأر لزملائه، وشاهد وجوههم مصفرة بالرمال فصاح : الله أكبر .

ولـم تكـتمل فـرحته حـيث شـاهده أحـد المـتخلفين مـن المجمـوعة الإسـرائيلية وكـان قادمًا من خلفه وسمع صوته وحدد مكانه وتسلل إليه في خفة ليشاهد هذا الشجاع الذي قتل مجموعة كاملة بمفرده وهي مسلحة بكامـل أسـلحتها، فـصوب نحـوه مدفعـه وأطلق عليه دفعة كاملة أردته قتيلاً .

وسـقط الـبطل الـشجاع الذي لم يعرف الضعف أو الخوف إلى قلبه

سبيلاً . . لقد قتل بيديه الطاهرتين حوالي ٤٩ جنديًا إسرائيليًا طوال أيام المعركة من فصيلة إسرائيلية واحدة بعد أن انتقم لزملائه وثأر لأخيه الشهيد ربيع زكريا وأدى حق الله وواجب الوطن عليه .

وفي صبيحة اليوم التالي جاءت فرقة استطلاع إسرائيلية تتفقد الموقع وتحمل جثث القتلى من اليهود .

فوجدت الشهداء المصريين متناثرين هنا وهناك وأيديهم على أسلحتهم قبل أن يموتوا والرمال السافية تغطي أجزاء كبيرة منهم . ودهش أعضاء الفرقة وهم يشاهدون فوق التبة المرتفعة قبرًا واحدًا أعدّ على عجل ووضعت فوقه عدة أحجار رفع بينها شاهد من خشب انتزع من أحد الأشجار الجافة وكتب عليه باللغة العربية (هذا قبر الشهيد البطل سيد زكريا، استشهد مساء ٨ أكتوبر سنة ١٩٧٣م) . وبجوار الشاهد رفع مدفع الشهيد وفوقه خوذته . ولم يعرف أحد من الفرقة من الذي فعل هذا؟ ولم فعله؟ ومتى؟ ولماذا هو دون غيره؟!

وكتب رئيس فرقة الاستطلاع التقرير الآتي إلى رؤسائه : "قمت مع فرقتي بمعاينة الموقع الذي نزلت فيه مجموعة الصاعقة المصرية خلف خطوطنا القتالية . ووجدت الفرقة المصرية أبيدت عن آخرها بأسلحة قواتنا وقتلاهم مبعثرون في المنطقة . كما قتلت سرية المشاة الإسرائيلية التي ذهبت للتعامل معهم ولم ينج منها سوى جندي واحد هو : عزرا حاييم كومانونس الذي التقطته إحدى مدرعاتنا وعادت به إلى كتيبته وكان عدد أفراد السرية اليهودية الذين قتلوا ٤٩ جنديًا إسرائيليًا نقلناهم معنا ليدفنوا في إسرائيل . وشاهدنا قبرًا منفردًا في أعلى التبة لأحد الجنود

القتلى المصريين كتب عليه قبر البطل الشهيد سيد زكريا خليل استشهد يوم ٨ أكتوبر ١٩٧٣م، وبجوار الشاهد مدفعه وخوذته العسكرية. ولم نستدل على الفاعل وجاري البحث والاستقصاء عنه" .

وكتب بعد هذا التقرير تكملة له تقول: "كان من بين القتلى المصريين المقدم إبراهيم الرفاعي قائد المجموعة وبجواره جندي ينام على وجهه وتحته راديو ترانستور صغير مازال يردد بعض الأغاني الوطنية التي تذيعها المحطات المصرية. واستولينا على كل أسلحتهم ومعداتهم، ومن خلال خوذاتهم التي عثرنا عليها قدرنا عددهم بخمسين جنديًا. ومازال لغز القبر المنفرد قائمًا ولم نستطع الوصول أو معرفة من أقامه. بعد أن تأكدنا من وجود جثمان الجندي القتيل داخله للاطمئنان على أنه حقيقة وليس خداعًا" .

ويستمر السؤال حائرًا: من الذي أقام هذا القبر؟ ولا يوجد أحد من المصريين في المنطقة والسرية اليهودية قتلت ما عدا جنديًا واحدًا عاد بعد هجوم القوات المصرية من الخلف بعد المعركة إلى وزارة الدفاع الإسرائيلية.. فمن فعل ذلك؟!

ذكريات البطل قبل استشهاده

ذكريات البطل قبل استشهاده

وضـع سـيد زكـريا مدفعه بجواره بعد أن أعده للمعركة القادمة التي ينتظر اشتعالها بين لحظة وأخرى .

واسـتأذن قائـد الكتيبة المقدم إبراهيم الرفاعي ليستريح قليلاً فأذن له واسـتند بظهـره إلى صخرة في جانب الخندق قريبة من فتحة الباب يتسلل منها الضوء إليه .

ولكـنه بـدلاً مـن أن ينام أخرج ورقة وقلمًا وراح يكتب فيها مسندًا ظهر الورقة على جانب من صندوق الذخيرة القريب منه .

ونظـر إلـيه المقـدم إبـراهيم ، وقال ضـاحكًا : ظننتك ستنام يا سيد ، ولكن يبدو أنك ستكتب رسالة إلى حبيبتك وخطيبتك أميرة التي حدثتني عنها ، أو ستكتب وصيتك .

سـيد : لا يـا سـيادة المقـدم . لا هـذا ولا تلـك . إنها رسالة أكتبها إلى ابـن شـقيقتي أحمـد شـيباني الذي أعتبره كابني تمامًا ويساورني إحساس غامض بأن هذه آخر رسالة أكتبها له .

وتـركه المقـدم إبـراهيم لخواطـره تنـساب كمـا يريد ، وعلى الضوء الخافت المتسلل إليه كتب سيد زكريا الرسالة الآتية :

ابننا العزيز أحمد شيباني

تحية طيبة وبعد

فأعرفك أنني بخير. إنني قائم الآن بمهمة كبيرة جدًا وأتمنى من الله أن أستشهد في سبيل الله كما استشهد أخي الأكبر ربيع في حرب ١٩٥٦م.

وأخيرًا أرجو منك أن تكمل المسيرة والعهد الذي بيني وبينك.

كما أرجو أن تكمل دراستك ومسيرتك في الثانوية العامة ولا تتنازل عن ذلك إذا أنا استشهدتُ، وإذا عدت منتصرًا فسوف أفي بعهدي معك وأكمل لك مسيرة التعليم الجامعي إن شاء الله.

وأخيرًا سلامي إلى السيد الوالد وإخوتي، وشد حيلك مع خالتك ووالدتك، وأرجو ألا تقرأ لهم هذا الخطاب.

وقال له المقدم إبراهيم بعد أن رآه يطوي الرسالة ويضعها في جيبه: أين الحمامة الزاجلة التي ستحمل رسالتك إلى قنا؟

هل نسيت يا سيد أننا منقطعون عن العالم ولا توجد وسيلة ما لنقل رسالتك؟

سيد : إنني كتبتها وربما تكون ذكرى عزيزة يحتفظ بها ابن أختي الذي أحبه وأعتز به.

وبعد أن وضع سيد الرسالة في جيبه عادت به أفكاره إلى الخلف كشريط يمر أمامه يعيد عليه قصة حياته من بدايتها. كأنه يسترجعها ليضع في نهايتها الصفحة الأخيرة التي ينتظر أن يكتبها اليوم أو غدًا، وأغمض عينيه وتوالت في مخيلته رقائقها يدفع بعضها بعضًا.

وتـراءت أمامـه قـريته نجع الخضيرات بمحافظة قنا، في ثوبها البسيط الـذي يغلفـه الفقـر وشـيء غير قليل من التخلف نتيجة لبعدها وعزلتها والتقالـيد القاسـية الـتي تـتحكم في طـبائع أهلـها، والـتي ورثـوها عن أجـدادهم الـسابقين، فلـم يـسمحوا إلا بقـدر ضـئيل من الفكر الجديد يقتحم عليهم طبيعتهم ويغير من عاداتهم شيئًا.

ووالـده فـلاح بسيط لا يملك إلا بضعة قراريط من الأرض الزراعية يفلحهـا بنفـسه ويساعده هو وأخوه أحمد في فترة فراغهما. ويعمل أجيرًا بقية العام لدى أصحاب الأرض الكبيرة في قريتنا أو القرى المجاورة لها.

وقد نال قسطًا بسيطًا من التعليم يعينه على القراءة والكتابة في كُتاب القـرية كما حفظ بعض أجزاء القرآن الكريم، وتعلم شيئًا من أمور دينه شـرحها لهـم فقـيه الكُتاب، وهو في نفس الوقت إمام المسجد الوحيد في القرية.

وهـو في طبيعته مثل أبناء الصعيد قوي البنية متكامل الأعضاء سليم الـبدن أكـسبته شمـس الصعيد سمرة جميلة في شكله وصلابته وحريته في خلقـه، وعـزة لا تقـبل الخـضوع أو الـذل، بل والصمود أمام الصعاب والشدائد.

وأوغـل اللـيل في سيره والقطار يخترق ظلمته ويبدد هدوءه، وتمايل الـناس بعـضهم علـى بعـض مـن هـزاته الرتيبة وعلاهم السكون والملل والـنعاس وسـقطت رؤوسـهم إلى الخلـف أو الأمـام أو فـوق أكـتاف جيرانهـم، وعـلا شـخير بعـضهم فنبه الباقين من سباتهم. ولم يغمض لسيد جفن أو يصيبه فتور بل ظل يقظًا منتبهًا تسبح عيناه في ظلمة الليل،

وجذوع النخيل تسرع في الاختفاء من أمامه كأشباح مذعورة تنتفض هاربة، وتراءت أمام عينيه جموع المودعين فوق رصيف المحطة . . الحاج عبد العظيم عمدة النجع جاء بنفسه لوداعه ومعه أمين الجمعية التعاونية الزراعية .

والسيد محمد علوان شيخ الخفراء والأستاذ على حسان مدرس التاريخ في المدرسة الابتدائية وصديق صباه وشبابه، والشيخ عبد الوارث مأذون النجع وأبناء شقيقته وأخوته وأهله، كل هؤلاء جاءوا لوداعه مع والده زكريا خليل .

واعتراه إحساس كئيب بأنه لن يراهم مرة أخرى وكأنهم خرجوا يشيعونه إلى الآخرة لا يودعونه إلى السفر؛ فلأول مرة يخرج هذا الجمع الكبير لوداعه، وربما يكون الخروج الأخير .

ونفض عن ذهنه هذا الخاطر الحزين، وتوقف خياله على صورة أميرة، وكأنه يراها ماثلة أمامه بعيونها الجميلة وكأنها ملاك من السماء، وهي تنظر إليه نظرة حزينة .

وفي القطار دار بينه وبين أحد الجنود المرافقين له في الاستدعاء هذا الحوار :

قال الجندي : أتظن أن هناك حربًا مثلاً؟ إن كل الدلائل لا تشير إلى هذا. فالأمور تسير سيرًا طبيعيًا وتتسم بالهدوء. وحالة الجيش عادية ومستقرة، وبعض القادة الكبار كما قرأنا في الصحف سيسافرون لأداء العمرة غدًا أو بعد غد؛ لأنها عمرة شهر رمضان التي يحرص الجميع على أدائها .

ســــــــيد : ولم لا يكـون هـذا كله من باب التمويه . ألم تسمع أن الحرب خدعة ، والذي يتفنن في حبك الخدعة هو الذي ينتصر في النهاية ومن أدراك أن هؤلاء القادة سيسافرون لأداء العمـرة أو أنهـم سـيتحركون مـن مواقعهم . إن رئـيس الدولـة رجـل ذكي ومخلص ويعرف كيف يدبر أموره كما يعرف نقاط الضعف في خصمه جيداً .

الجـــــــندي : ربمـا يا أخي ، فدهاليز السياسة طويلة عميقة وساحات القـتال أطـول وأعمـق . ولا شـك أن قادتـنا وهم من رجـال السياسة والحـرب يدركـون مـن الأمـور ما لا ندركـه نحـن . أجـدنا عبور القناة إجادة تامة ، وأصبح هـذا بالنسبة لنا شيئًا مألوفًا لا نجد فيه استحالة أو نشعر أمامـه بخوف . ولـم يُسمح لنا بعودتنا إلى بلادنا إلا بعد أن تأكـد قادتنا مما يريدون واطمأنوا إلى سلامة التدريب ونجاحه ، ويخيل إليّ يا أخي أننا قادمون على عمل كبير ستكـشف عنه الأيام القليلة القادمة . ولكن الغريب في الأمـر أن القـيادة العامـة أعلـنت عـن رحلات للعمرة خلال شهر رمضان لضباط الجيش وجنوده . وأفرجت عـن جـزء كـبير مـن الجـنود الذين أنهوا خدمتهم ولم تـستبق أحدًا منهم ، وكل ذلك نشر في الصحف . إنها أمور محَيرة ومثيرة للشك .

فقـــال ســـيد : إنني أوافقك ولا أستبعد أن نثأر لشرفنا وعرضنا . لكم أتمنـى أن يأتى هذا اليوم سريعًا لنغسل العار الذى لحقنا

أتمنى أن يأتي هذا اليوم سريعًا لنغسل العار الذي لحقنا ونذيق العدو درسًا لن ينساه، ونعطر تراب سيناء بدمائنا المنتصرة كما آلمناها من قبل بدمائنا المغلوبة على أمرها، ومبلغ علمي أن كل ما يجرى الآن هو تمويه وخداع حتى تنطلي الحيلة على العدو ويظن أننا لا نفكر في الحرب أبدًا. لقد دربونا على تحمل الجوع والظمأ، وعند الضرورة نستعين بما هو موجود كي نسد به رمقنا، ولا بأس أن يكون هذا الشيء حشرة أو ثعبانًا أو بقايا أوراق جافة أو مياه راكدة عفنة. هذه حياة رجال الصاعقة يا زميلي، وهي كتائب مهمة في القوات المسلحة. وأنت في أي سلاح تعمل؟ قبل أن تحال إلى الاحتياط؟

الجـــــندي : إنني لم أغادر الجيش إلا منذ شهور قليلة، وكنت في سلاح المشاة، وكتيبتي قريبة من بلبيس، وهناك حفروا لنا قناة تشبه قناة السويس والموانع التي تقف شرقها من جميع الوجوه. وظللنا فترة طويلة نتدرب على اقتحامها وعبورها بكل الوسائل. سباحة أو بالزوارق المطاطية أو الدبابات البرمائية أو الكباري المتحركة، حتى لقد ظننت أنني الوحيد الذي أرسلوا لاستدعائي، ولكن اضتح لي عكس ذلك؛ فجميع جنود الاحتياط استدعوا على عجل من جميع القرى والمدن. وطُلب من كل جندي أن يسلم نفسه للوحدة

التي يتبعها في موعد أقصاه صباح الغد سواء في السويس أو الإسماعيلية أو بور سعيد. وأنت في أي وحدة من القوات المسلحة؟

فقال سيد : إنني في الصاعقة وهي كتيبة دربت على تحمل المشقات والمصاعب والتفاعل مع أقسى الظروف، لأنها كتيبة إنزال تفاجئ العدو من الجهة التي يأمنها فتفسد عليه خططه وتشل حركته وتثير فيه الفزع والخوف. وكثيراً ما يكون إسقاطها خلف العدو.

قفز سيد داخل القطار بقامته الفارعة وخطواته الرشيقة كبطل أسطوري من أبطال الإغريق، ودوى صفير القطار معلنًا تأهبه لرحلته الطويلة، وزحفت عجلاته على القضبان محدثة صريرًا مزعجًا، وارتفعت الأيدي بالتلويح والمناديل بالإشارة والقلوب بالخفقان، ووقف هو على باب القطار وحيًا مودعيه بطاقيته العسكرية ممسكًا بها بكلتا يديه، كأنه يعاهد والده وأهله أن يصون هذا الشرف الذي يعلو هامته ويتمسك به ما بقي في يديه رمق من حياة ومليون جندي على جبهة القتال ولهم مليون عائلة في الخلف يأملون في عودتهم سالمين منتصرين بإذن الله ﷻ.

وأوغل القطار في مسيره تاركًا محطة قنا بكل ما فيها ومن فيها، وألقى عليها سيد نظرة أخيرة فهو لا يدري إن كان سيراها بعد ذلك أم لا.

ولن ينسى أبدًا هذا الجمع الكبير الذي أقبل لوداعه. كما هي عادة

أهل الصعيد في أداء الواجب على الوجه الأكمل. ولا سيما وأنهم يزفون ابنا عزيزًا عليهم إلى ساحة البطولة والفداء، واختلط الجميع بعضهم ببعض.. إخوته الذكور بأخواته الإناث، وفي جانب قريب منه وقفت أميرة خطيبته، تودعه بقلبها وعينيها، وصافحته بسرعة قبل أن يحيط به المودعون حينما أقبل القطار يتهادى فيختفي عنها وسط جمعهم.

وقال له الأب في كلمات حاسمة قبل أن يتحرك القطار: كن قويًا ورجلاً، ولا بد أن تسترد مع إخوانك الأرض التي اغتصبها اليهود، ولا تنس أن تثأر لأخيك ربيع الذي استشهد.

سيد : اطمئن يا أبي، سأثأر لأرضنا وعرضنا ولأخي ربيع. وأوصيك خيرًا بوالدتي وأخواتي، ولا تنس أميرة حتى أعود إليها إن شاء الله.. أمد الله في عمرك يا أبي.

محمد : وحينما تعود تحضر لي معك بندقية من إسرائيل حتى أفتخر بها وأقول أخي سيد أحضرها لي.

إنه لم ينس يوم سفره بعد استدعائه لأداء واجبه، ووداع أهله وأصدقائه له في قرية البياضية ونجع الخضيرات، كان يومًا لن تمحوه الأيام مهما اشتدت أحداثها. فلم يتخلف أحد من أهل القرية ممن يستطيع من الذهاب لوداعه على محطة قنا. وفي مقدمتهم زكريا والد سيد. لم تقعده شيخوخته عن الذهاب إلى قنا لوداع ابنه. وعلى الرغم من ضعفه وما تركته السنين على جسده من وهن إلا أنها لم تضعف قوة روحه وصلابة إيمانه وجسارة عزيمته.

فبدا أمام ابنه قويًا صلبًا، وربها على الشجاعة والرجولة حتى كبر

كما يكبر أمثاله من شباب القرية. وسمع كما سمعوا من راديو العمدة أخبار إسرائيل وتجبرها واعتداءاتها المتكررة واغتصابها للكثير من الأراضي العربية، وثارت في عروقه الدماء الحرة، وحينما طلب للتجنيد سنة ١٩٧٠م بالصاعقة المصرية سلم نفسه قبل الموعد المحدد لأداء فريضة الوطن. إنه مؤمن بقضية وطنه وقداسة الدفاع عنه وتحريره.

وهو وإن لم ينل قدراً كبيراً من التعليم يزوده بالثقافة الوطنية اللازمة، إلا أن حب الوطن يتغلغل في عروقه، إنه يحب قريته ويفتديها بكل ما يملك، ويحب أهله ويضحي من أجلهم. وقريته جزء صغير من وطنه الكبير، وأهله بعض من كل. فدفاعه عن وطنه هو دفاع عن قريته وأهله.

أمانة ووفاء

أمام العالم الخارجي

أمانة ووفاء

أمام العالم الخارجي

في قاعة احتفالات كبرى بمدينة برلين أقيم حفل عشاء دبلوماسي دعي إليه سفراء الدول الأجنبية بمناسبة قومية في شهر إبريل سنة ١٩٩٥م.

وكانت القاعة رحبة ممتدة صُممت على طراز كلاسيكي فاخر وازدانت جدرانها بالصور الطبيعية الخلابة واللوحات الزيتية لأشهر فناني العالم.

وتدلت الثريات الضخمة من سقف القاعة كأنها عناقيد من نجوم السماء المتلألئة.

وتفرعت عن هذه القاعة الكبرى قاعات صغرى أعدت في بعضها موائد الطعام والشراب والحلوى والفاكهة، وكانت القاعة الكبرى تعجّ بالحاضرين على هيئة مجموعات، كل مجموعة اتخذت ركنًا من أركان القاعة الفسيحة.

وكان بين المدعوين السفيرة المصرية عزيزة فهمي رئيسة المكتب الدبلوماسي المصري في برلين، حيث اتخذت مكانها في ركن من أركان القاعة الكبرى، وحولها بعض الشخصيات من أعضاء السفارة المصرية هناك. وهي شخصية وقورة قوية تتمتع بذكاء حاد ونظرة ثاقبة للأمور أكسبتها احترام الجميع، وبجوارها يجلس رجل متوسط القامة وسيم الوجه أنيق الملبس.. إنه مدير مكتبها الأستاذ يسري، الذي مال نحوها قليلاً وهمس: ألا تلاحظين مَن يجلس في الركن المقابل لنا يا سيادة السفيرة؟

السفيرة : نعم، إنه القنصل الإسرائيلي زيفرنفيسكي مونسكي. ما لنا به، دعه وشأنه.

الأستاذ يسري : ألم تلاحظي شيئًا في جلسته يا سيادة السفيرة؟

السـفيرة : ماذا لاحظت أنت؟

الأستاذ يسري : منذ حضر وجلس في ذلك الركن وهو يوجه نظراته إلى سيادتك.

السـفيرة : إليّ أنا بالذات؟ أم إلينا جميعًا باعتبارنا الهيئة الدبلوماسية المصرية؟

الأستاذ يسري : لا بل إلى سيادتك بالذات، وكأنه يريد أن يلقي إليك حديثًا يسره في ضميره. وقد لاحظته أكثر من مرة وهو يصوب نظراته إليك.

السـفيرة : كفانا الله شره وشر نظراته، وإن كنت لا أخفي إعجابي بفراستك ودقة ملاحظتك التي يجب أن يتسم بها من يعملون معي.

الأستاذ يسري : هذا واجبنا وتلك رسالتنا، وأشكر سيادتك على ثنائك.

وأعلن أحد المسئولين في وزارة الخارجية الألمانية عن بداية حفل ترفيهي غنائي موسيقي تؤديه إحدى الفرق الفنية، وقدمت منوعات غنائية بلغات مختلفة من كل الأقطار المشاركة في الحفل الدبلوماسي، ثم قدمت الأغنية المصرية الوطنية بصوت المطرب عبد الحليم حافظ، وتمت الترجمة لهذه الكلمات عن طريق مترجم ألماني يجيد العربية، ومطلعها:

بالأحضان يا حبيبتي يا أمي يا بلادي يا غنيوه في دمي

والتي هزت موسيقاها السامعين ورددوا كلماتها دون أن يفهموا معناها، ولكن مستر هانز الألماني شرح هذه الكلمات، فأثارت الشجن في نفوس المصريين نحو بلادهم البعيدة، بعد هذه الأغنية مباشرة نهض القنصل الإسرائيلي من مكانه وتقدم نحو السفيرة المصرية محييًا إياها في تواضع وخجل قائلاً: سيدتي السفيرة الكريمة، يسعدني أن أتقدم إليك بأطيب التحيات وأسمى آيات التقدير لك ولبلدك العظيم مصر.

فردت عليه السفيرة تحيته بأحسن منها ودعته للجلوس مرحبة به، فشكرها وجلس بجوارها، ثم دار بينهما حديث هامس، وكان الأستاذ يسري منصتًا لهذا الحديث متابعًا له.

وأخرج القنصل من حقيبته الصغيرة بطاقة عسكرية ورسالة حائلة اللون من قدمها وميدالية معدنية وقدمهم إلى السفيرة قائلاً: هذه متعلقات تخص جنديًا مصريًا مات في حرب أكتوبر، وقد احتفظ بها الجندي الإسرائيلي الذي تمكن من قتله تذكارًا لشجاعته، وبقيت معه هذه المتعلقات حتى انتهت الحرب، وعاد الجندي إلى عمله في وزارة الخارجية، ثم أوفدته الخارجية الإسرائيلية موظفًا بقنصليتها في ألمانيا، وهو يعمل معي الآن، وقد ظل محتفظًا بهذه الأشياء معه لا تفارقه أبدًا. وعندما علم بهذا الحفل وأنك ستكونين حاضرة فيه سلمني هذه الأشياء لأقدمها إلى سيادتك وفاء وعرفانًا منه وتقديرًا لبطل أدرك هو كجندي مدى شجاعته.

وأخذت السفيرة البطاقة العسكرية وقرأت فيها: سيد زكريا خليل بطاقة رقم ٥٤٤٥٤٠٤ عسكرية، وخطابان أحدهما إلى والده، والآخر إلى ابن شقيقته، كتبهما قبل أن يموت بساعات، وميدالية معدنية عليها لفظ الجلالة لا إله إلا الله محمدًا رسول الله (ﷺ) والرقم العسكري، وعجبت السفيرة وقالت: لك كل الشكر ولهذا الجندي الإسرائيلي الوفي، ولكن ما سر حصوله على تلك المتعلقات وسبب احتفاظه بها كل هذه السنوات؟ لابد أن وراء هذا قصة غريبة. أريد أن أسمعها بنفسي من جنديكم هذا لو أذنت سيادتكم.

القنصل : إنه موظف بالقنصلية الإسرائيلية، وهو موجود في برلين هذه الأيام.

السفيرة : هل يمكن أن أستضيفه غدًا على كوب من الشاي لأسمع منه مضمون هذه القصة؟

القنصل : إنني موافق يا سيادة السفيرة، وسأرسله إلى سيادتك غدًا، وسيكون مسرورًا جدًا بلقائك، وسيشرح لك ما حدث في تلك المعركة التي استشهد فيها بطلكم الجندي سيد زكريا خليل. وهو يوصي بأن ترسل هذه المتعلقات إلى أسرة الشهيد في قريته بصعيد مصر ليزداد إعجابهم وإكبارهم بابنهم البطل.

واستأذن القنصل بعد أن شكرته السفيرة على عمله الجليل وبعثت بشكرها للجندي الإسرائيلي وأنها ستكون في انتظاره صباح الغد بإذن الله، ودار حديث هامس بين السفيرة وأعضاء البعثة المصرية في نظرات مشبعة بالدهشة والمفاجآت.

وغادرت السفيرة الحفل وهي مستغرقة في تفكير عميق شغلها طول الوقت حتى أنساها أنها في طريقها إلى بيتها وأنها قد وصلت إليه بالفعل، ولم تستيقظ من حلم تفكيرها إلا على صوت سائقها ينبهها إلى الوصول إلى المنزل.

وكانت أعصاب السفيرة متوترة من الحديث الذي سمعته ولا تدري من حقيقته شيئًا أو تتأكد من صدق هذا القول، ومتى كان لإسرائيلي عهد أو وفاء حتى يستبقي على هذه الأشياء مدة طويلة بحجة الوفاء والإخلاص، وما الذي يدعوه لذلك؟ وكيف يقتل جنديًا مصريًا ثم يحتفظ بما سلبه منه ويقدمه لنا؟ أيريد أن يذكرنا بأن الإسرائيلي أقوى منه وأنه انتصر عليه.

وطلبت من سائقها أن يتجول بها قليلاً حتى تهدأ وتستريح. إنها تخشى أن يكون وراء ما قاله القنصل الإسرائيلي شيء من التخطيط الخفي وما أكثر ألاعيبهم وحيلهم، ولكن ماذا وراء هذه اللعبة؟ ومن ذلك الجندي الإسرائيلي صاحب تلك المغامرة؟ وعادت إلى منزلها بعد جولة في شوارع برلين استنشقت فيها نسيم الليل وتركت لتفكيرها فرصة الراحة والانطلاق.

لقد اعتادت على المفاجآت، وعليها أن تقابل كل شيء بهدوء واتزان ودبلوماسية، وهذه طبيعة عملها.. تبتسم حينما تريد أن تغضب، وتضحك حينما يحين وقت البكاء، وتلبس رداء يخفي وراءه كل شيء. واستراحت لخواطرها عند هذا الحد، وقالت لنفسها: إن غدًا لناظره قريب.

حتى أشرق الصباح فاستعدت ليوم جديد وعمل جديد، ومفاجآت لا تدري إن كانت سارة أو سيئة، وقصة لم تتأكد إن كانت حقيقة أم وهمًا وخداعًا.

اتخذت السفيرة مكانها في مكتبها بالسفارة، وقامت بأعمالها المعتادة التي تمارسها كل صباح، فوقّعت بعض الأوراق واتصلت بمن تريد، ثم أخبرها مدير مكتبها أن القنصل الإسرائيلي اتصل به هاتفيًا وأبلغه أن الجندي الإسرائيلي في طريقه إلى السفارة المصرية.

وبعد برهة قصيرة يصل الجندي الإسرائيلي، ويستأذن في الدخول على السفيرة فتأذن له بصحبة مدير مكتبها.

ويدخل الجندي الإسرائيلي مرتديًا ملابسه المدنية، وتلاحظ السفيرة أنه طويل القامة رفيع العود ملامحه أقرب إلى السمات الشرقية، وأنه تجاوز مرحلة الشباب، وحياها في عربية سليمة فردت تحيته ودعته للجلوس، فجلس على كرسي أمام مكتبها وجلس مدير مكتبها على المقعد المقابل له.

وبعد أن طلبت له السفيرة الشراب الذي يريده بدأ الجندي حديثه بشكر السيدة السفيرة لأنها أتاحت له هذه الفرصة وسمحت بلقائه لها وأن هذا شرف يعتز به.

السفيرة : (وكأنها أرادت أن تدخل في الموضوع مباشرة): أشكرك كثيرًا وأهلا بك. وفي الواقع إنني فوجئت في الحفلة أمس بما قدمه لي قنصلكم من أوراق تخص الجندي المصري، ولم أكن أعرف شيئًا كثيرًا عن تفاصيل هذا الموضوع، ولا شك أنك ملم به لأنك أحد أطرافه، وحبذا لو زدتني معرفة به إذا لم يكن لديك ما يمنع، وقد أخبرني السيد القنصل بأنك تريد ذلك. فما هو دور الجندي المصري سيد زكريا خليل؟ وما صلتك أنت به؟ ولماذا احتفظت بحاجياته طيلة تلك السنوات؟ ومتى مات؟ وأين قبره؟ . . . هل أطمع في أن أجد لديك الإجابة عن كل تلك الأسئلة وغيرها مما يجول بخاطري؟

الجندي الإسرائيلي : نعم سأشرح لك كل شيء. . إنها ذكريات غائرة وعميقة في قلبي لن تمحوها الأيام. وما الأشياء التي قدمت لسيادتكم إلا عنوان وبقية منها، ومن قديم وأنا أدخرها لنفسي وأحتفظ بها كذكرى عزيزة غالية، ولكنني خشيت أن يضيع العمر وتضيع معه هذه الذكريات بعد أن داهمتني عدة أمراض تؤذن بنهاية أجلي، وقد انتهزت فرصة وجودك في هذا الحفل حينما علمت بها وقدمت ما

معي للقنصل ليسلم لسيادتك أمانة قيمة في معناها لتعود
إلى أصحابها ويتذكر الناس جنديًا عظيمًا، أعتقد أنه لا
يزيد في مفهومكم عن اسم مكتوب بين مئات الشهداء
الذين سقطوا في معركة السادس من أكتوبر.

وامتصت السفيرة هذه اللغة الخبيثة من الجندي الإسرائيلي ولم تعقب عليها بل تركته يسترسل في حديثه.

السفيرة : واصل حديثك.. إنني منصتة إليك.

الجندي : اسمي عزرا حاييم، وكنت أخدم في سلاح المشاة الإسرائيلي.

ثم سكت قليلاً كأنه يسترجع ذكرياته، ومال برأسه على مقعده إلى الخلف كأنه مستلق أمام طبيب نفسي، وبدأ يروي قصة من قصص البطولات التاريخية، وأغمض عينيه وراح يتحدث: كان ذلك في اليوم الثامن من أكتوبر ١٩٧٣م بعد أن عبرت القوات المصرية قناة السويس، واجتازت أكبر حاجز مائي، وحطمت أكبر مانع حربي هو خط بارليف الحقيقي، وكنا نظن أنه لن ينهار أبدًا. وعلمنا أن وحدة صغيرة من قوات الصاعقة المصرية نزلت خلف خطوطنا وتمركزت فوق إحدى التبات من جنوب سيناء، وسرعان ما اكتشف قادتنا الإسرائيليون هبوط هذه الوحدة المصرية خلف خطوط جيشنا. بعد أن أحدثت ارتباكًا واضطرابًا في قواتنا الخلفية، وكانت شوكة مؤلمة على الرغم من قلة عددهم، ويجب الخلاص منهم، ولأمر لم أفهمه عجزوا عن الاتصال بالقيادة المصرية حتى تمدهم أو تنتزعهم من مكانهم وظلوا محاصرين فوق التبة، حتى أرسلت القيادة الإسرائيلية بعض المدرعات والدبابات وسرية من المشاة للتعامل معهم، وكنت أنا واحدًا من أفراد هذه السرية، واشتبكنا مع جنود الوحدة المصرية واحتوانا قتال عنيف استبسل فيه الجنود المصريون ودمروا كل ما معنا من آليات. لقد كانوا أبطالاً بكل ما في هذه الكلمة من معان، ولكن قواتنا استطاعت أن تتغلب على القوة المصرية الصغيرة بكثرة أسلحتنا وذخيرتنا.

السفيرة : ولكن كيف استشهد الجندي المصري سيد زكريا؟ وكيف حصلت على أوراقه الخاصة وبطاقته العسكرية؟

الجـــــندي : مهـلاً يا سيدتي السفيرة، سأكمل الحديث، واستطرد قائلاً: بعد محاصـرتنا للقـوة المصرية لم تستسلم أو تلق بأسلحتها بل انهالوا علينا بنيرانهم الكثيفة. فشددنا عليهم وأسكتنا أسلحتهم بعد أن حـصدوا جـنودنا فردًا فردًا وقضوا على السرية التي كنت ضمن أفـرادها، إلا أنـني ظللـت مختبـئًا في حفـرة أصـوب نيراني على الجنود المصريين ولهذا نجوت من القتل. ولم أشاهد بعد ذلك إلا مـصدرًا واحدًا للنيران لم يمت بعد أو يستسلم، وتسللت زاحفًا علـى بطني أبحث عن مصدر هذا الصوت حتى اقتربت من خلفه بهـدوء دون أن يـشعر بي فرأيته جنديًا واحدًا اختبأ خلف مرتفع صـغير تحـصن بـه وقـضى على فصيلة المشاة التي كنت فيها منها ولم يخطئ في رصاصـة واحدة أطلقها، واقتربت منه أكثر فأكثر وأفـرغت خزينة بندقيتي فيه بعد أن أحكمت تصويبي فارتمى من فـوق التبة مـضرجًا بدمائـه، وأحسـست بعـد ذلـك بشعورين متناقضين: شعور بالزهو لأنني أخذت بثأري وثأر فصيلتي التي أبادها عن آخرها وعددها ٤٩ جنديًا وضابطًا ومقدمًا إسرائيليًا، وشـعور بالإعجـاب يـناقض الـشعور الأول تمامًا لأنني رأيت في هـذا الجـندي المـصري تجـسيدًا لمعانـي الـبطولة والـشجاعة التي نفـتقدها في كـثير مـن المحـاربين. جندي واحد حوّل الهزيمة إلى نـصر بقوة إيمانه وشدة حماسته وحدة ذكائه وحسن تصرفه وخفة حـركته وبـسالته في القـتال لـيلاً. رأيت فيه كيف تكون البطولة وكيف يكون الفداء، فهو لم ييأس ولم يجبن ولم يحاول الفرار أو الاستـسلام مـع رؤيته لفصيلته كلها وقد أبيدت عن آخرها حتى قائـدها سـقط قتـيلاً علـى بعد أمتار قليلة منه، فليس هناك مجال لـنجاته أو مبرر لقتاله المستميت إلا البطولة النادرة التي تكمن في قلبـه وعقلـه، والتي لا يستطيع الوصول إليها الكثير من المقاتلين أمثاله.

الـــــسفيرة : إنك تتحدث عن الجندي المصري وكأنك مصري ولست يهوديًا.

الجنـــــــدي الإسرائيلي : في الحقيقة أنا مصري الأصل . . يهودي مصري . ولدت في حارة اليهود بالإسكندرية كما ولد قبلي أبواي وأجدادي . وكان والدي من التجار اليهود الذين عاشوا في مصر أطول فترة قبل أن ننزح منها إلى إيطاليا ثم إلى إسرائيل . لقد شربت حب مصر كما شربت ماءها ، وأحببت المصريين ، وكان لي من بينهم أصدقاء وزملاء وجيران . وعلى الرغم من اشتراكي في معارك كثيرة ضد المصريين فقد كنت حريصًا أن أتجنب قتلهم ، ومن المؤلم أن يكون البطل سيد زكريا أول جندي مصري أقتله في حياتي . صدقيني يا سيدتي السفيرة إنني أحب مصر ، ولو عاد بي الزمن وتركت حرًا مختارًا ما غادرت مصر ولا رضيت عنها بديلاً . ولكنْ وقفتْ من خلفنا ضغوط وعوامل متعددة ألجأتنا إلى غير ما تريد ولم نستطع منها هروبًا .

الســــــفيرة : (في غيظ تحاول أن تكتمه ولكنه يظهر في نبرات صوتها) : ولكنك قتلت هذا الجندي البطل ولم تحفظ فيه حق مصر عليك ، وقابلت الوفاء بالجحود والنكران ، بل قتلته في حقد وغيظ شديدين لأنك أفرغت خزينة رصاصك كلها فيه فأين هو هذا الحب؟!

الجنـــــــدي : سيدتي السفيرة إن الحرب قتال وصراع ، والجندي فيها إما قاتل وإما مقتول ، وإذا لم أتمكن من قتل ذلك الجندي المصري العظيم فلاشك سيكون هو قاتلي ، ونحن في مكان محدود لا مجال لهروب أحدنا منه أو الفكاك من عدوه . إننا في غابة يتصارع فيها وحشان جائعان ولابد أن يفترس أحدهما الآخر حتى لو كان أخاه .

الســــــفيرة : (محاولة كتمان انفعالها) : ولكنك أفرغت كل رصاصاتك في جسده . ألم تكن رصاصة واحدة تكفي بدلاً من أن تشوه جسده ميتًا؟

الجنـــــــدي : كنت خائفًا منه خوفًا شديدًا بل كنت أرتعد ، وظننت أن رصاصة

واحدة أو رصاصتين غير كافية لقتل هذا البطل الذي قتل فصيلتي بكامل أفرادها، كان في مخيلتي كأسطورة تتعالى على القتل والموت، ولهذا أفرغت في جسده خزينة مدفعي كلها. وقديمًا قرأنا في الكتب العربية ونحن نتعلم في مدارس الإسكندرية، أن الشاة لا تتألم من السلخ بعد الذبح، فلا فرق بين رصاصة أو أكثر مادامت النهاية واحدة.

السفيرة : إنني منصتة إليك فأكمل حديثك.

الجندي : بعد أن أصبته برصاصي، خفت أن يكون مازال على قيد الحياة لأن بطولته أرعبتني، وتخيلت أنه سيباغتني برصاصة مفاجئة تقتلني، وتقدمت نحوه في حذر ومازلت متصورًا أنه حي، وأعددت بندقيتي لإطلاق الرصاص عليه.

السفيرة : ولماذا لم تحاول الهرب والفرار في تلك اللحظة وقد خلت الساحة من الجنود المصريين بعد أن قتلت ذلك الجندي البطل ولم يعد هناك غيره يقاتل؟

الجندي : إنه الخوف. لقد أخافني في موته كما أخافني في حياته، فخفت من الهرب قبل أن أطمئن إلى أنه قد مات حقًا.

السفيرة : وماذا فعلت بعد أن تأكدت من موته؟

الجندي : حينما وصلت إليه في حذر وخوف وجدت جسده قد سكن عن الحركة، وأن روحه صعدت إلى بارئها الخالق العظيم، ومع هذا اقتربت منه في حيطة وخوف، وأبعدت سلاحه عن يده وأمسكتُ بها لأتأكد من موته. وعندما أمسكت بيده أحسست بشيء غريب يشدني نحوه ويقربني منه، وكأن صلة قلبية حميمة تربط بين وبينه. شعور غريب انتابني في تلك اللحظة وأنا أقف في ساحة مليئة بجثث القتلى من المصريين واليهود، تدفعني لأن أهرب سريعًا ولا أنتظر لحظة، ولكنني وجدت يديّ تفتشان في

جيوبه كأنني أبحث عن وثيقة خفية تربطني به وتشدني إليه.
وكانت المفاجأة الغريبة التي أذهلتني والتي هي أقرب ما تكون
إلى شطحات الخيال، ولكنها الحقيقة الواقعة التي لا كذب فيها.

وسكت الجندي لحظة وقد ظللت وجهه سحابة من الحزن والألم.

السفيرة : (في حب استطلاع وترقب) : أية مفاجأة لقيتها أكثر من بطاقته العسكرية، ورسالتان لأبيه وابن شقيقته، وميدالية معدنية عليها لفظ الجلالة، وهذه متعلقات عادية توجد في حوزة كل جندي مقاتل؟!

الجندي : هذا هو ما قدمته لسيادتك عن طريق قنصلنا فقط.

السفيرة : وهل هناك أشياء أخرى لم تقدمها؟

الجندي : نعم هناك أشياء أخرى أكبر وأعظم من وجهة نظري ولم أقدمها.

السفيرة : وما هي هذا الأشياء؟ ولماذا لم تقدمها؟ أهي أسرار عسكرية وجدتها معه وقدمتها إلى الجهات الإسرائيلية المختصة؟

الجندي : لم يكن معه أسرار عسكرية.

السفيرة : إذًا لماذا لم تقدمها لنا مع ما قدمت من أوراق؟ هل احتفظتَ بها أم بددتها؟ نريد أن نعرفها ونعرف أين ذهبت؟ مادمت ارتضيت أن تعطيني هذه المتعلقات وقبلت أن تحدثني عن الظروف التي أحاطت بحصولك عليها.

الجندي : إنها أشياء تخصني وحدي دون سواي. احتفظت بها لنفسي ومازالت أحتفظ بها في محفظتي ولا تفارقني في سفري أو إقامتي.

السفيرة : (في دهشة وعجب): ولماذا احتفظت بها لنفسك مع أنك لا تعرف هذا الجندي المصري ولا يعرفك، ويكفيك أنك قتلته بخزينة كاملة من بندقيتك. وأخافك ميتًا بعد أن أخافك حيًا.

الجـــــــــندي : لا تسخري مني يا سيادة السفيرة. لقد كانت المفاجأة مذهلة ولم تخطر لي على بال ولا أظنك تتقبلينها بسهولة وقناعة.

الســـــــفيرة : وما هي؟

الجـــــــــندي : لقد وجدت في محفظته صورة شخصية لي في ريعان شبابي وعليها إهداء له بخطي.

الســـــــفيرة : (وقد ازدادت دهشتها): صورة لك في محفظته! من أين أتى بها؟ وكيف كان ذلك؟

فأخرج الجندي الصورة من جيبه وقدمها للسفيرة كي تراها وتردها إليه.

وأمسكت بها السفيرة فرأت فيها ملامح الجندي الإسرائيلي في صباه وقد كتبت تحتها بضع كلمات كادت عوامل الزمن أن تمحو حروفها.

وتقول هذه الكلمات: إلى أخي وصديقي ربيع زكريا خليل، ذكرى لا أنساها طوال عمري وجميل أحتفظ به.

التوقيع: عزرا حاييم كومانوس، طالب بالسنة النهائية بالمدرسة الإبراهيمية.

وتذكرت وقتها أنه كانت عندي نسخة من تلك الصورة أهداها لي ربيع وموقع عليها باسمه. ولم أعرف لماذا وجدت صورتي مع سيد ولم توجد مع ربيع. حتى وجدت رسالة سيد التي كتبها إلى والده وفيها يقول:

إنه يقوم بعمل بطولي وربما يستشهد في المعركة كما استشهد أخوه ربيع في معركة ١٩٥٦م، وهنا علمت بوفاة صديقي ربيع فازددت حزنًا وألمًا.

وهنا قال مدير مكتب السفيرة: وربما قتل ربيع أيضًا برصاصة من رصاصاتك الطائشة في حرب ١٩٥٦م.

الجـــــــــندي : لا يا سيدي إنني لم أشترك في حرب ١٩٥٦م، فقد هاجرت مع أسرتي من مصر ١٩٥٥م إلى إيطاليا ولم نذهب إلى إسرائيل إلا في نهاية عام ١٩٥٨م.

السفيرة : (وهي ترد له الصورة) : إنك لم تقل لي كيف عرفت ربيع ومتى رأيت سيد زكريا؟ وما الذي ربط بينكم؟ أريد أن أعرف القصة من بدايتها إذا لم يكن لديك مانع .

وهنا بدأ الجندي يسترجع ذكرياته القديمة التي مضت عليها سنوات تاهت في عمر الزمن . والسفيرة محدقة فيه تكاد تلتهم كلماته التهامًا لتعرف تتمة القصة . ثم يبدأ الجندي يقول وكأن الكلمات آتية من مكان بعيد من أعماق التاريخ :

كان ذلك اللقاء في أحد أيام شهر يونيه سنة ١٩٥٤م .

والجو حار وسكان الإسكندرية يهربون إلى الشاطئ يستمتعون بنسيم البحر اللطيف .

وذهبت مع مجموعة من أصدقائي وألقيت بجسدي في ماء البحر لأزيل عناء الحر اللافح . ولم أنتبه للراية السوداء المرفوعة والتي تحذر من السباحة في هذا الوقت، فالبحر ثائر وأمواجه متلاطمة تضرب الشاطئ بعنف كأنها غاضبة حانقة . لم أعر التفاتًا لما شاهدت، وسبحت في الماء حتى توغلت بعيدًا دون أن أدري، وحملتني الأمواج إلى حيث لا أستطيع منها خلاصًا أو رجوعًا . وأشرفت على الغرق واستسلمت لقدري، وحاولت أن أتعلق بشيء ينقذني فلم أجد . حتى أصدقائي تركوا الشاطئ هاربين وتخلوا جميعهم عني، ووقف الناس على الشاطئ يتصايحون ويستغيثون دون مجيب .

وفجأة رأيت يدًا تمسك بي وتدفعني بقوة إلى الشاطئ في حركة ماهرة سريعة . توحي بمهارة صاحبها في السباحة وحسن تصرفه . فلم يعطني فرصة التعلق به لنغرق سويًا في هذا الموقف الذي لا يبالي فيه من يوشك على الغرق بشيء ما، بل جذبني من يدي وظل يسحبني بسرعة حتى وصلت إلى الشاطئ، كانت لحظات فاصلة بين الموت والحياة .

وبعد انتباهي وجدت شابًا في مثل سني يجلس بجواري ويبتسم بسمة ودودة ويحمد الله على سلامتي، وأشار إليه الناس بأنه منقذي من الغرق . . هو الذي وهبني الحياة وأمد في عمري .

وظللنا معًا فترة طويلة على الشاطئ تعارفنا فيها وتصادقنا وتآخينا، عرفت أن اسمه ربيع زكريا خليل، والطفل الصغير الذي يرافقه هو أخوه سيد زكريا. وأنهما من صعيد مصر بمحافظة قنا، وأتيا إلى الإسكندرية لزيارة عمهما الذي يعمل بالميناء للفسحة وقضاء فترة الصيف معه. وساقتهما الأقدار لإنقاذي، وأنه أجاد السباحة لممارسته لها في مياه النيل التي تحيط بقريته.

كان في السابعة عشرة من عمره وأنا في مثل سنه، بينما سيد في العاشرة تقريبًا. طفل جميل حلو التقاطيع أكسبته شمس الصعيد سمرة خفيفة تشدك إليه، وبنيانه قوي متكامل ينبئ بشباب فتي ينتظره ورجولة مبكرة تبدو معالمها واضحة متوقعة.

وسكت الجندي قليلاً وكأنه يكلم نفسه: ورغم موته ظلت هذه الملامح واضحة معبرة على جسده الساكن الذي مزقته رصاصاتي وعينيه المغمضتين..

السفيرة : وماذا بعد؟

الجندي : وظللنا نلتقي كل يوم ودائمًا يأتيان معًا.. ربيع وسيد، متصاحبين ونقضي وقتنا على الشاطئ أو التجول في شوارع الإسكندرية، وتبادلنا الصور التي من بينها هذه الصورة التي معي. وانتهى الصيف فغادرا الإسكندرية مع أسرتهما إلى قريتهم بالصعيد، واستمر الاتصال بيننا بالرسائل التي لم تنقطع. حتى جاء الصيف الذي يليه وحضرا إلى الإسكندرية فجددنا اللقاء والصداقة بل ازدادت صلتنا أكثر وأكثر، واحتل ربيع وسيد في قلبي مكانة لا ينازعهما فيها أحد. وانتهى الصيف الذي تمنيت ألا ينتهي وأن يستمر طويلاً، وافترقنا على أمل اللقاء، ولكن الظروف السياسية تبدلت وتغيرت، ودعينا إلى الرحيل من مصر مع غيرنا من اليهود، بل أجبرنا على ذلك بشتى الوسائل حتى نساهم في بناء دولة إسرائيل الموعودة. وأمدوا أمامنا الآمال بأنه لن يمضي وقت طويل حتى نعود إلى مصر محتلين لها مسيطرين عليها لأنها تدخل ضمن حدود إسرائيل الكبرى التي تمتد من النيل إلى الفرات ويخطط لها قادة إسرائيل.

وأراد مدير مكتب السفيرة أن يتكلم فأشارت إليه السفيرة بالصمت.

واسترسل الجندي في حديثه: وكان هذا آخر لقاء بيني وبين ربيع وسيد، ولكن صورتهما ظلت في خيالي لم تفارقني أبدًا. وانتقلت مع أسرتي من مصر إلى إيطاليا ثم إسرائيل. حتى قامت الحرب فدعيت مع غيري من الشباب اليهودي للدفاع عن إسرائيل الكبرى.. الحلم البراق لكل يهودي، والتي يريد العرب أن يلقوا بها في البحر كما قيل لنا. وكانت المعارك والحروب التي انتهت بمصرع سيد زكريا كما رويت لسيادتك.

السفيرة : (في سخرية لاذعة): وها أنت ذا يا عزرا قد رددت لسيد جميله وقتلته، ومن قبلك زملاؤك ردوا لربيع في سنة ١٩٥٦م الجميل أيضًا وقتلوه. ومات الأخوان المصريان اللذان أنقذا يهوديًا من الموت أليس.. كذلك؟

الجندي : لا تزيدي من ألمي يا سيادة السفيرة، فإنها مشيئة القدر التي تتحكم في مصائرنا أو تسخر منا أحيانًا.

السفيرة : نعم إنها مشيئة الله ولا راد لقضائه. وأنت فعلاً رددت لسيد الجميل ومن قبله أخوه ربيع. إنهما شهيدان من شهداء الله ومثواهما الجنة بإذن الله مع الأبرار والأنبياء والصديقين والمؤمنين والمجاهدين في سبيل الله.

مدير المكتب : وماذا فعلتَ بعد أن عرفت شخصية سيد؟

الجندي : بكيت عليه كثيرًا، ويعلم الله، واعتذرت عما فعلت، ولكن ماذا يجدى الاعتذار، ووددت لو أرد له الحياة مرة أخرى وأحييه كما أحياني مع أخيه من قبل.

السفيرة : وهذا هو سر احتفاظك بأوراقه على ما أظن.

الجندي : نعم احتفظت بها اعتزازًا بذكرى خالدة لن تمحوها الأيام، وحسرة وندمًا على ما فعلت.

السـفيرة : وهل تركت جثمان الشهيد في مكانه؟

الجـندي : لا، لقد حملته على التبة المرتفعة وحفرت له قبراً واريت جثمانه فيه وغطيته بكمية من الأحجار ووضعت على قبره نصبًا تذكاريًا كتبت عليه اسمه باللغة العربية وتاريخ استشهاده، ورفعت عليه بندقيته وخوذته العسكرية التي كانت تغطي أشجع رأس وأنبله، وأديت له التحية العسكرية، وأطلقت إحدى وعشرين طلقة نوبة الشهيد، وغادرت المكان سريعًا حتى لا يراني أحد فيقدموني إلى محاكمة عسكرية لأنني أكرمت مصريًا. وفجأة هربت القوات الإسرائيلية من هذا الموقع لتتقدم القوات المسلحة المهاجمة من الخلف إلى الأمام القادمة من قناة السويس، والذين قضوا على القوات الإسرائيلية بأكملها وأسروا عددًا يقدر بالمئات بل بالآلاف، واحتلوا جميع مواقعنا وتقدموا حتى تم تحرير سيناء بالكامل. ولم يعرف أحد مَن الذي حفر هذا القبر، وتجاهلته معهم حتى هذا الوقت، ولاشك أن المئات بل الألوف مروا بجواره مصريين أو يهود دون أن يتبين إنسان ما حقيقة دفين هذا القبر أو هويته، ولو عرفوه لوقفوا أمامه خاشعين مترحمين، وكان حول قبر الشهيد الحمام الأبيض يقف يغرد له وكأن هذا الحمام ملائكة من السماء. إنه قبر لأعظم الأبطال في تاريخ حروبكم ونضالكم. هذه خلاصة القصة يا سيدتي السفيرة، احتفظت بها لنفسي ثم أفصحت عنها لسيادتك حتى لا تموت بموتي وتطوى صفحة بطل عظيم في زوايا النسيان دون أن يعرف مواطنوه شيئًا عن شجاعته وبطولته.

السـفيرة : إنني أشكرك على كل حال. فهذا وفاء أحترمه لك وتقدير أحييك على فعله. كما أشيد بأمانتك وجميل مشاعرك. وأعدك بأن أنفذ ما طلبته، فأوصل ما سلمته لي إلى أهله، وأبلغ المسئولين في مصر بكل التفاصيل التي رويتها لي.

ومرة أخرى شكرته السفيرة.

ثم استأذن الجندي وغادر السفارة محتفظًا بالصور التي معه، وقبل أن يغادر مكتب السفيرة قال:

الجندي : كم كنت أتمنى أن أقدم هذه الأوراق بنفسي إلى أهله ولكن سيادتك خير سفيرة في ذلك.

وانصرف بعد أن ودعها.

واتصلت السفيرة بوزير الخارجية ووزير الحربية وروت لهما تفاصيل ما حدث، وسرعان ما نشرت الصحف المصرية الخبر على صفحاتها الأولى تحت عنوان (بطل من مصر)، وأن الفضل ما شهدت به الأعداء، وتناقلت الخبر وكالات الأنباء العالمية، وأسرع المراسلون والمصورون إلى قريته، يسألون عن أسرته وأهله، ويتعرفون على نشأته وتاريخه.

ولم يكن البطل في حاجة إلى من يسأل عنه، فقد كتب تاريخه وكفاحه بدمائه الطاهرة التي سالت على رمال سيناء في سبيل حرية وطنه وفي سبيل الواجب وكرامة مصر ورفع علمها عاليًا، والبطولة الحقة هي ما اعترفت وشهدت بها الأعداء.

وبقيت صحراء سيناء الواسعة برمالها الصفراء، يتناثر في جوانبها حطام مئات الدبابات الإسرائيلية، وتزحف فوقها آلاف الدبابات المصرية، وتدب في هدوئها وسكونها أقدام الأبطال المصريين، وتتزاحم في سمائها أسراب الطائرات الوطنية المصرية، ويقطع صمتها الطويل دوي المدافع المصرية الهادرة، لتعلن إلى الأبد أن سيناء مصرية وستظل مصرية ما بقيت فيها حبة رمل أو قطعة صخر، أو بقى بطل واحد يدب على أرض مصر الغالية الحرة.

ولن يدنسها بعد ذلك أبدًا قدم أجنبي غادر يقترب من ترابها الطاهر حيث سيدفع الثمن من دمه على أيدي القوات المصرية التي وضعت نصب عينيها أمرين لا ثالث لهما:

(النصر أو الشهادة).. فتحقق لها ما أرادت.

ومازالت أصداء ذلك النصر الكبير ترددها سماء سيناء، ويهتف معها صوت الشهداء:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾

(سورة آل عمران: ١٦٩)

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

